المؤلف الحائز على
جائزة نوبل للآداب
2014

باتريك موديانو

من أقاصي النّسيان

روايــة

@ketab_n
Follow Me
7.5.2017

ترجمتها عن الفرنسيّة

دانيال صالح

باتريك موديانو

من أقاصي النّسيان

رواية

ترجمتها عن الفرنسيّة

دانيال صالح

مراجعة

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»
بيانات الفهرسة أثناء النشر
PQ2673.O3 D8312 2016
Modiano, Patrick, 1945-
[Du plus loin de l'oubli]
من أقاصي النسيان : رواية / تأليف باتريك موديانو ؛ ترجمة دانيال صالح ؛ مراجعة كاظم جهاد. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2016.
224 ص. ؛ 11 × 18 سم.
ترجمة كتاب : Du plus loin de l'oubli
تدمك : 978-9948-13-660-6
1- القصص الفرنسية- القرن 20.
أ- صالح، دانيال. ب- جهاد، كاظم. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Patrick Modiano
Du plus loin de l'oubli
© Editions GALLIMARD, Paris 1996

لوحة الغلاف: «لندن، البرلمان، انعكاسات الشمس على التايمز»، لكلود مونيه، 1905 (تفصيل)
Claude Monet, Londres. Le Parlement. Reflets sur la Tamise, 1905 (détail)

كلمة KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

عام القراءة 2016
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

من أقاصي النّسيان

Twitter: @ketab_n

ديباجة

بين يدي القارئ هنا رواية أخرى من الروايات الستّ التي نقدّمها في هذه السلسلة بترجمة دانيال صالح للكاتب الفرنسيّ، الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 2014، باتريك موديانو Patrick Modiano. وكما في أغلب أعماله، نغوص هنا في العوالم المأزومة لأبناء جيله، الذي نشأ ما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها (هو من مواليد 1945)، وتكبّد في تكوينه النفسيّ والاجتماعيّ أثر الأجواء المضطربة والملتبسة لتلك الفترة.

طالما امتاز موديانو بوضوح الأسلوب ومتانته في آنٍ معاً. كتابته قائمة على الرّصد الموضوعيّ، بعيداً عن كلّ انثيالٍ غنائيّ، وعلى إلماحات عابرة يكتشف القارئ في نهاية الشوط كونها أساسيّة.

Twitter: @ketab_n

هنا لا شاعريّة مقصودة في ذاتها للجملة، ولا من تفرّد بارز للعيان بادئ ذي بدء. قليلة هي العبارات التي تعْلق بذهن القارئ أو تستوقفه بحمولتها الدلالية بمفردها. بيد أنّ المجموع، في ضربٍ من «خدعة» فنيّة رفيعة، ينتهي إلى تشكيل مناخٍ يرافق المرء طويلاً ويستنطقه. هذا ما جعل ناقداً مثل تيري لورون يتكلّم عن «هذا السِّحر غير القابل للتحديد» في روايات موديانو. هو سردٌ متجرّد لتجارب قصوى، هيام في الأمكنة والذكريات، وتلمّسٌ صابرٌ تتخلّله مساحات واسعة من المجهول. صمتٌ ناطق. توتّر دائم، لا بل صراع بين الذاكرة النسيان، وحاجة دائمة إليهما معاً. بحثٌ أليمٌ عن جذورٍ، عن انتماءٍ ما، تقليبٌ لا هوادة فيه لجذوة خابية تقبع تحت الرّماد، وتنقيبٌ عمّا يمكن أن يشكّل سيرة، ولو مثلومة أو مرقّعة ترقيعاً. نشدانُ تواصلٍ لا يأتي، أو هو يأتي متقطّعاً ومنذوراً ليزول بسرعةٍ محبِطة. كائنات تتشبّث بحياةٍ لم تعشها، أو عاشتها قبل أن تولد، ورثتْها من حيرة معيّنة وغموض معيّن يكتنف جيل الآباء. يمكن أن نضع على ألسنتها وعلى لسان موديانو نفسه ما يقوله الرّاوي أو السّارد في الفصل التّاسع من كتابه «دفتر

Twitter: @ketab_n

العائلة»: «كنت لا أزال في العشرين من عمري، لكنّ ذاكرتي كانت تعود إلى ما قبل ولادتي». والسّارد ذاته يضيف أبعد قليلاً: «الذاكرة نفسها نخرَها حمضٌ ما، ولم يبق من كلّ صرخات العذاب وكلّ وجوه الماضي الهلعة سوى نداءات ما فتئت تخبو، وملامح يلفّها الإبهام».

صراع الذاكرة والنسيان، إذن، ووطأة الغياب، والإصرار على عدم التّسليم بالخسارة، والبحث الدائم عن علامة باقية أو وجه باقٍ من وجوه حقبة استثنائيّة. محاولة لاستعادة الزمن شبّهها النقّاد بعمل مارسيل بروست «بحثاً عن الزّمن المفقود»، سوى أنّ موديانو يتبع جماليّة مختلفة، ويعمل بالتقطّع والوجازة، واعياً، مع ذلك، وكما صرّح هو نفسه في بعض حواراته الصحافيّة، أنّ الكاتب «محكوم عليه بأن يكتب الكتاب ذاته دوماً».

عمله إنّما هو ملحمة سلبيّة للتخلّيات، نشيد متقطّع ودائم المعاودة لضحايا الهجران. كان هو وشقيقه الوحيد يودَعان في أيدي عوائل صديقة أو عند معارف لأبويهما. وكان يحدث أن يُلفيا نفسيهما منسيّين، مهمَلين، ضائعَين. مراراً صوّر الكاتب هذا الاكتشاف الصاعق للعزلة

Twitter: @ketab_n

وللغياب، يُقذف إليهما كائن أو أكثر لا عن اختيار.

كما يزخر هذا العمل بغراميّات عابرة مع نساء يختفين ويعاودن الظهور بعدَ عقد من السنوات أو أكثر، متخفّياتٍ وراء أسماء وهويّات أخرى، كما في هذه الرّواية. ثمّ لا يفتأن يعاودن الاختفاء. اختفاء متكرّر، كائنات تمشي في خطوط متوازية تتجاور ولا تلتقي. وفي كلّ مرّة يباشر «البطل» السّارد بحثاً يائساً عن إمكانات استعادة وجوه ماضيه ذاك، وعمّا قد يكون بقي من كائنٍ يكاد لا يعود هو نفسه. بيد أنّ هذا البحث يُختتم أحياناً بهذا اليقين المتجلّي في أنّ الفقدان يكاد يكون هو الشرط الأعلى للحياة، وأنّ انقشاع الأوهام قد يكون في حدّ ذاته عطيّة طيّبة.

هذا كلّه نراه حاضراً في هذه الرواية، الصادرة في 1996، وهي رواية موديانو التاسعة عشرة. تحيل أجواؤها إلى سبعينيّات القرن العشرين، ما يعني أنّ «بطلها» السّارد ولدَ في عامٍ مقاربٍ لذاك الذي ولد فيه الكاتب. تتوزّع التجربة المرصودة هنا على ثلاث حلقات زمنيّة تغطّي ثلاثة أقسام روائيّة. يلتقي السارد في باريس بجيرار فان بيفر ورفيقته جاكلين، وهما شابّان غامضان يعتاشان بوسائل ملتبسة

Twitter: @ketab_n

منها القمار. كلاهما يمتاز بدمائة وطبيعة ملتبسة ومضطربة في الأوان ذاته، تأرجح ولا يقين. لا نعلم لَمَ يحرصان على ألّا يُبقيا وراءهما أثراً، وعلى التخفّي إلى هذا الحدّ، لا ولا نعلم ما يحدوهما إلى الهرب من كارتو، صديقهما الذي تسرق منه جاكلين في النهاية حقيبة فيها أموال.

يتعلّق السّارد بهذين الشابّين ثمّ، مع اختفاء جيرار، يرافق جاكلين إلى لندن ويصبح عشيقها. ملمح وجوديّ دائم الحضور لدى موديانو: داخل التّيه الذي يعيشه «البطل» السّارد، يحدث لقاء مع امرأة تذكّره عن حقٍّ أو بفعلِ استيهامٍ بوجهٍ كان عرفَه من قبل. فيندفع في محاولة للاقتران بها ولاختراق صميميّتها. تُحبَط المحاولة أو تتحقّق لفترة ثمّ يُستأنَف البحث من جديد. يحدث أحياناً أن يعْرض بعد سنواتٍ لقاءٌ جديدٌ لا يقود بدوره إلى ثبات.

العيش المشترك في لندن، الذي يغطّي الحلقة الزمنية الثانية بعد فترة باريس الأولى، تصحبه هو الآخر لحظات اكتشاف وتجوال وبحث عن مسار ممكن، يعيشانه معاً ثمّ يعيشه السّارد وحده بعد اختفاء جاكلين. وأخيراً تكون عودة السّارد إلى باريس، وتتمخّض عن تيه متجدّد،

Twitter: @ketab_n

يُفاقمه شعور بالاختفاء وفقدان الذاكرة والهويّة، وتُختتم بمعاودة التقاء جاكلين بعد خمس عشرة سنة، وقد تبدّلت ملامحها و«هويّتها». قبل الفراق النهائيّ تقوم بينهما محاورة كاشفة وما يشبه وصولاً إلى يقين.

هذا المسار الذي لخّصنا خطوطه العريضة احتراماً لمتعة القارئ في الاكتشاف، هو بحثٌ عن الصّنْو أو القرين محاطٌ بعوائق من كلّ صنف. وللتعبير عنه يتوسّل الكاتب بهذه التلاقيات العابرة بين كائنات يظهر الواحد منها للآخر كما لو كان هو قرينه المنتظَر ثمّ يختفي تاركاً وراءه أكثر من علامة استفهام، ومُفسحاً المجال إلى حنينٍ لا تخبو شرارته.

هي محاولة لغزو روحٍ ما، لتحقيق قرانٍ ما، ونشدانٌ لحياةٍ أخرى تقوم خارج رماديّة واقعٍ يوميّ يجمعه بكائناتٍ بلا خيال ولا صبوات حقيقيّة (فانْ بيفر وكارتو بباريس، وراكمان في لندن). لا أجمل، ولا أكثر اقتصاداً، من الأسطر التي يصف فيها السّارد إحساسه بالسّعادة (سعادة هاربة!) يداهمه لدى زيارته هو وجاكلين منتزهاً بلندن. سعادة بسيطة مع ذلك، يعبّر عنها السّارد بمفردات حسيّة: «كم يطيب الجلوس هنا!، قالت لي جاكلين. وأسندت رأسها

Twitter: @ketab_n

إلى كتفي. كانت أغصان الأشجار تحجب المنازل حول المنتزه. لم نعد نشعر بالحرّ الخانق الذي كان يلقي بثقله منذ بضعة أيّام على لندن، مدينة يكفي أن ننعطف فيها عند زاوية شارع حتّى نلفي أنفسنا في غابة».

لا يهمّ الكاتبَ أن يمعن في وصف علاقة السّارد بجاكلين في أدقّ تفاصيلها ومنعطفاتها بقدر ما يعنيه أن يرسم أجواء فترة، بورتريتها الجماعيّ إن جاز القول، أو بانوراماها الروحيّة، فترة تنشأ فيها الأواصر وتنهار دون أن نعرف المنطق الذي يستند إليه هذا التناوب الأليم. بناء الرواية نفسه حلَقيّ، فالمراحل الثلاث التي يغطّيها العمل تتشابك ولا تأتي مفصولة. إنّ ثمّة تكراراً مقصوداً يجعل التجارب والسّيَر مكتنفة بما يشبه العَوْد الأزليّ.

وكما في أغلب أعمال الكاتب، نلاحظ أيضاً إفادة من التاريخ. فبعض النقّاد يذكّروننا مثلاً بأنّ شخصيّة مالك الشّقق الكثيرة بيتر راكمان، الذي يؤوي السّارد ورفيقته في لندن، مستوحاة من حياة شخصٍ عاش بالفعل في لندن من المضاربة بالعقارات في منتصف القرن الماضي. وحوله يرينا السّارد عالماً كاملاً يحفل بالمناورات والأسرار.

Twitter: @ketab_n

في أغلب أعمال موديانو، نقابل رؤية مسّاحٍ أو معماريّ أو خرائطيّ لباريس. فلا أحد قبله سوى بلزاك أبدى مثل هذه المعرفة الدقيقة بشوارعها ومبانيها ومقاهيها ومسارحها ومَتاجرها ومجمل أجوائها. ولا تقلّ دقّة عن ذلك معرفته بما يكتنف دواخل أهل المدينة في مرحلة حرجة من تاريخهم، أقول ما يكتنفها من قلق وأسرار تؤرّقهم وتحرمهم من نعمة الوضوح. هكذا تظلّ باريس (وكذلك بعض أجواء لندن) حاضرة هنا في معمارها وغرابتها، وهشاشتها أيضاً. فالمدينة التي تلتهم ذاتها وتمحو معالمها القديمة في عقد من الزمان، هذا أيضاً موضوع أثير لدى موديانو. نعيشه هنا في الحلقة الزمنية الثالثة، فور عودة السّارد إلى باريس. وإذا بالبحث المضني عن الوجوه يضارعه ويعزّزه بحث مماثل عن روح المدينة.

كما أنّ الرحلة إلى مدينة أخرى، رحلة تتحقّق بصورة مؤقّتة أو تُخفق بادئ ذي بدء، تمثّل صدعاً في التجربة ومحاولة لبداية جديدة، محاولة يائسة للهروب من ماضٍ معيّن، أو أصلٍ ما، أو جنحة غامضة. هو في مطلق الأحوال بحث عن صيرورة أخرى أو عن مصير آخر.

Twitter: @ketab_n

ويبدو السّارد هنا كبير الشّبه بالروائيّ ومساره العائليّ. فالتباس شخصيّة راكمان بدا للنقّاد قريباً من غموض والد الكاتب كما صوّره هذا الأخير في عديد أعماله. وعلى غرار الكاتب يطمح السّارد منذ هذه السنّ إلى أن يصبح روائيّاً. وكما التفت إليه النقّاد أيضاً، فإنّ اختيار كتاب «رياح عاتية في جامايكا» للكاتب البريطاني ريتشارد هيوز Richard Hughes، الذي لا يفارق السّارد أبداً، يظلّ في حدّ ذاته بعيد الدلالة. فيبدو أنّ الفيلسوف جان بول سارتر كان شديد الإعجاب به، لكونه يعالج في نظره ولادة الوعي بالذّات، وهو ما يعيشه السّارد في هذه المرحلة المفصليّة من حياته، يوم كان في لندن يصبو إلى تحقيق انصهار نهائيّ مع جاكلين وفي الأوان ذاته إلى تحقيق حلمه الأدبيّ. في السنّ ذاتها كان ذلك حلم موديانو نفسه. ومن المهمّ أن نلاحظ هنا أنّ اكتساب الهويّة الشخصيّة إنّما يتحقّق مرتبطاً بالكتابة. والسّارد يندفع فيه بقدر ما يكتشف استحالة اقتران روحين اقتراناً كليّاً أو مبرماً.

المُراجِع

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إلى بيتر هاندكه

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«من أقاصي النسيان...»

شتيفان غيورغه

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كانت متوسّطة الطول، وهو، جيرار فان بيفر، أقصر قامة منها بقليل. في ليلة لقائنا الأوّل، في ذاك الشتاء قبل ثلاثين عاماً، رافقتهما إلى فندق على رصيف لا تورنيل، وفي الختام دعوَاني إلى غرفتهما. سريران، أحدهما قرب الباب، والآخر تحت النافذة. تلك النافذة لم تكن تطلّ على رصيف النهر، ويبدو لي أنّها كانت كوّة في السقف المنحني.

لم ألحظ أيّ فوضى في الغرفة. السريران موضّبان. لا حقائب. ولا ملابس. لا شيء سوى منبّه ضخم على إحدى المنضدتين الليليّتين. وبالرغم من ذلك المنبّه، بدا وكأنّهما يقطنان هناك خلسة، فيتفاديان ترك أيّ أثر لوجودهما. على أيّة حال، لم نبقَ في الغرفة في ذلك المساء الأوّل سوى لحظات قليلة، فقط ما يكفي لأترك فيها كتب

Twitter: @ketab_n

الفنّ التي تعبت من حملها ولم أنجح في بيعها لإحدى مكتبات ساحة سان ميشال.

كنت في ساحة سان ميشال تحديداً حين بادراني بالكلام عند العصر، وسط سيل المارّة الذين كانوا يلجون مدخل محطّة المترو أو يسلكون الجادّة صعوداً في الاتّجاه المعاكس. سألاني أين يمكنهما العثور على مكتب بريد في الجوار. خفت أن تكون تعليماتي مبهمة عليهما، فأنا لم أحسن يوماً شرح أقرب طريق من نقطة إلى نقطة أخرى. ففضلّت أن أرشدهما بنفسي إلى مركز البريد في ساحة الأوديون. في طريقنا، توقّفَتْ عند مقهى لبيع التبغ واشترت ثلاثة طوابع. ألصقَتْها على الظرف، بحيث تسنّى لي قراءة اسم «مايوركا» مدوّناً عليه.

أسقطت الرسالة في أحد الصناديق دون أن تتحقّق من أنّه الصندوق الذي كتب عليه «خارجي-بريد جوّي». وعدنا أدراجنا نحو ساحة سان ميشال وأرصفة النهر. أبدت قلقها لرؤيتي حاملاً الكتب، إذ «لا بدّ أنّها ثقيلة الوزن». ثمّ قالت لجيرار فان بيفر بنبرة جافة: «بوسعك مساعدته». ابتسم لي وتأبّط أحد الكتب، الأكبر حجماً.

Twitter: @ketab_n

في غرفتهما على رصيف لا تورنيل، وضعْتُ الكتب عند أسفل المنضدة الليليّة، تلك التي كان المنبّه على سطحها. لم أكن أسمع طقطقته. كانت عقاربه تشير إلى الساعة الثالثة. بقعة على الوسادة. حين انحنيت لوضع الكتب أرضاً، تنشّقت رائحة أثير تفوح فوق تلك الوسادة وذلك السرير. لامستني ذراعها وأشعلَت المصباح على المنضدة الليليّة.

تناولنا العشاء في مقهى، على الرصيف، على مقربة من فندقهما. لم نطلب سوى الطبق الرئيسي من قائمة العشاء. فان بيفر هو الذي سدّد الحساب. لم يكن لديّ نقود في تلك الليلة، وظنّ فان بيفر أنّه كان ينقصه خمسة فرنكات. نقّب في جيوب معطفه وسترته، وفي نهاية المطاف جمع ما يكفي من قِطَع العُملة. تركَتْه يفعل، وهي تحدّق به بنظره ساهمة، مدخّنة سيجارة. أعطتنا طبقها نتقاسمه، واكتفت بتناول بضع لقمات من صحن فان بيفر. التفتت صوبي وقالت لي بصوتها المبحوح قليلاً:

– في المرّة المقبلة، سوف نذهب إلى مطعم حقيقيّ...

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك، مكثنا أنا وهي أمام باب الفندق، بينما صعد فان بيفر إلى الغرفة لجلب كتبي. قطعْتُ الصمت بيننا لأسألها إن كانا يقيمان هناك منذ زمن طويل، وإن كانا قادمين من الريف أو من الخارج. لا، كانا متحدّرين من جوار باريس. ويسكنان هناك منذ شهرين. كان ذلك كلّ ما قالته لي في ذلك المساء. واسمها: جاكلين.

انضمّ فان بيفر إلينا وأعاد لي كتبي. أراد فقط أن يستعلم إن كنت سأحاول بيعها من جديد في اليوم التالي، وإن كان هذا النوع من التجارة مربحاً. قالا لي إنّ بوسعنا أن نلتقي من جديد. كان من الصعب عليهما تحديد موعد لي في ساعة معيّنة، لكنّهما كانا يجلسان في غالب الأحيان في مقهى عند زاوية شارع دانتي.

أعود أحياناً إلى هناك في أحلامي. في العشيّة، كانت شمس غاربة، شمس فبراير، تبهرني وأنا أسير على طول شارع دانتي. لم يتغيّر الشارع مع مرور كلّ ذلك الوقت.

توقّفت أمام رصيف المقهى المزجّج وجلت بنظري على منضدة الشّرب، وآلة الفليبّر، والطاولات القليلة الموزّعة كأنّها حول ميدان رقص.

Twitter: @ketab_n

حين وصلت الى وسط الشارع، كان المبنى الكبير في الجهة المقابلة من جادّة سان جرمان، يلقي بظلّه عليه. لكنّ الرصيف في خلفي كان لا يزال غارقاً في أشعّة الشمس.

عندما استيقظت، تراءت لي تلك الحقبة من حياتي التي عرفت فيها جاكلين من خلال التباين ذاته بين الظل والنور. شوارع شاحبة، شتائيّة، وفي الوقت نفسه الشمس المنسلّة من شقوق الدرف الخشبيّة.

Twitter: @ketab_n

كان جيرار فان بيفر يرتدي معطفاً من «التويد» المنسوج بشكل تعاريج، فضفاضاً عليه. أذكره واقفاً في مقهى شارع دانتي، أمام آلة الفليبّر. لكنّ جاكلين هي التي تلعب. لا تكاد تحرّك ذراعيها وصدرها، فيما تتعاقب طقطقات الفليبّر وومیض إشاراتها الضوئيّة. كان معطف فان بيفر واسعاً، منسدلاً إلى تحت ركبتيه. يقف مستقيماً، رافعاً ياقته، غارزاً يديه في جيبيه. أمّا جاكلين، فكانت ترتدي كنزة رماديّة ذات ياقة عالية وضفائر، وسترة من الجلد الناعم البنيّ.

في أوّل مرّة لاقيتها في شارع دانتي، التفتَتْ جاكلين صوبي، ابتسمَتْ لي وتابعت لعبة الفليبر. جلسْتُ إلى إحدى الطاولات. بدت لي هزيلة بذراعيها وصدرها

Twitter: @ketab_n

أمام الآلة الضخمة التي كانت تنتفض مهدِّدةً بقذفها في أيّ لحظة إلى الخلف. كانت تجهد للبقاء واقفة، مثل راكب قد يسقط من على متن زورق. اقتربَتْ وانضمّت إليّ حول الطاولة، وتمركز فان بيفر أمام الفليبّر. كان يدهشني في بادئ الأمر أن يواصلا هذه اللعبة لوقت طويل كهذا. غالباً ما كنت أعمد بنفسي إلى مقاطعتهما، وإلّا لكانت لعبتهما استمرّت إلى ما لا نهاية.

كان ذلك المقهى يكاد يخلو في العصر من الروّاد، لكن اعتباراً من الساعة السادسة مساءً، كان الزبائن يحتشدون خلف منضدة الشّرب ويتحلّقون حول الطاولات القليلة الموزّعة في الصالة، فلا أميّز على الفور فان بيفر وجاكلين بين هذا الجمع المتراصّ، وسط ضوضاء الأحاديث وطقطقات الفليبّر. كنت أرصد في بادئ الأمر معطف فان بيفر التويد بتعاريجه، ثمّ جاكلين. جئت مراراً من غير أن أجدهما، وفي كلّ مرّة، كنت أنتظر طويلاً، جالساً إلى إحدى الطاولات. كنت أظنّ أنّه لن يتسنّى لي بعد ذلك اليوم أن ألقاهما، وأنّهما ضاعا وسط الحشد والجلبة. وها هما في عصر أحد الأيّام هناك، في عمق الصالة المقفرة،

Twitter: @ketab_n

جنباً لِجنب أمام الفليبر.

لا أكاد أذكر التفاصيل الأخرى من تلك الحقبة من حياتي. أكاد أنسى ملامح والديّ. بقيت لفترة أسكن في شقّتهما، ثمّ تخلّيت عن دروسي وصرت أكسب بعض المال من بيع كتب قديمة.

بعدما تعرّفت إلى جاكلين وفان بيفر بقليل، نزلت في فندق مجاور لفندقهما، اسمه فندق ليما. عدّلت تاريخ الولادة المدوّن على جواز سفري لأزيد عمري سنة، بحيث صرت في سنّ الرشد.

في الأسبوع الذي سبق وصولي إلى فندق ليما، لم يكن لديّ مرقد أنام فيه، فعهدا إليّ بمفتاح غرفتهما وغادرا إلى أحد كازينوهات الأرياف تلك التي كانا يتردّدان عليها.

بدآ قبل لقائنا بكازينو أنغان، وكازينوهين أو ثلاثة في منتجعات صغيرة على سواحل النورماندي. وبعدها ركّزا نشاطهما في دييب، وفورج ليزو وبانيول دو لورن. كانا يغادران السبت ويعودان الاثنين ومعهما مبلغ ربحاه، لم يتخطّ مرّةً الألف فرنك. كان فان بيفر اكتشف تركيبة تقوم على «رهان الأرقام الخمسة حول الصفر»، كما كان

Twitter: @ketab_n

يقول، غير أنّها لا يمكن أن تكون رابحة إلّا إذا راهن على مبالغ متواضعة في العجلة الصغيرة.

لم أرافقهما مرّة إلى تلك الأماكن. كنت أنتظرهما حتّى يوم الاثنين من غير أن أغادر الحيّ. ثمّ بعد فترة، صار فان بيفر يذهب إلى «فورج ليزو» (وكان يسمّيها «فورج» وكفى)، لأنّها كانت أقرب من بانيول دو لورن، فيما جاكلين تبقى في باريس.

خلال الليالي التي قضيتها وحيداً في غرفتهما، كانت رائحة أثير تفوح فيها على الدوام. كانت القارورة الزرقاء موضوعة على رفّ المغسلة. وكان هناك ملابس معلّقة في الخزانة: سترة رجّاليّة، سروال، منْهدة، وإحدى تلك الكنزات الرماديّة العالية الياقة التي كانت جاكلين ترتديها.

لم أهنأ بنومي في تلك الليالي. كنت أستيقظ من غير أن أدري أين أنا. كان يلزمني وقت طويل حتّى أتعرّف على الغرفة. لو سألني أحدهم عن فان بيفر وجاكلين، لكنت وجدت صعوبة في الردّ وفي تبرير وجودي هناك. هل سيعودان؟ راحت شكوك تساورني في نهاية الأمر. الرجل

Twitter: @ketab_n

الذي كان يداوم عند مدخل الفندق، خلف طاولة خشبيّة داكنة اللون، لم يكن يكترث لرؤيتي أصعد إلى الغرفة وأحتفظ بالمفتاح. كان يحيّيني بإشارة من رأسه.

في الليلة الأخيرة، استيقظت قرابة الساعة الخامسة ولم يعد بوسعي العودة إلى النوم. لا بدّ أنّني كنت ممدّداً في سرير جاكلين، وكانت تكّات المنبّه قويّة إلى حدّ وددت معه لو أخفيه في الخزانة أو أطمره تحت وسادة. لكنّني كنت أخشى الصمت. فنهضت وخرجت من الفندق. مشيت على رصيف النهر حتّى سياج حديقة النباتات، ثمّ دخلت المقهى الوحيد الذي كان مفتوحاً في مثل تلك الساعة، مقابل محطّة أوسترليتز للقطارات.

في الأسبوع السابق، ذهبا إلى دييب للعب في الكازينو، وعادا في وقت مبكر جدّاً. سوف يكون الأمر مماثلاً اليوم. ما زال يتعيّن الانتظار ساعة أو ساعتين... كان سكّان الضواحي يخرجون من محطّة أوسترليتز بأعداد متزايدة، يتناولون فنجان قهوة واقفين عند منضدة الشّرب، ثمّ يلجون في مدخل نفق المترو. كان الليل لا يزال مخيّماً. مشيت عابراً من جديد بمحاذاة سياج حديقة النباتات،

Twitter: @ketab_n

وبعده سياج سوق النبيذ سابقاً.

لمحت خيالَيهما من بعيد. معطف فان بيفر التويد كان يلوح، بقعة فاتحة اللون في عتمة الليل. كانا جالسين على مقعد، في الطرف الأخر من رصيف النهر، قبالة خزائن باعة الكتب القديمة المغلقة. كانا وصلا للتوّ من دييب. دقّا على باب الغرفة، من غير أن يجيبهما أحد. كنت خرجت قبل قليل حاملاً المفتاح في جيبي.

نافذتي في فندق ليما تطلّ في جادّة سان جرمان، وأعلى شارع برناردان. حين أكون ممدّداً على السرير، يظهر لي في فتحة ذلك الشبّاك برج كنيسة نسيت اسمها. وكانت الساعات تدقّ خلال الليل، بعدما يخمد ضجيج حركة السير. غالباً ما كانت جاكلين وفان بيفر يرافقانني للعودة إلى غرفتي. ذهبنا لتناول العشاء في مطعم صينيّ. حضرنا أيضاً فيلماً في السينما.

في تلك المساءات، لم يكن هناك ما يميّزنا عن الطلّاب الذين كنّا نلاقيهم في جادّة سان ميشال. معطف فان بيفر البالي قليلاً، وسترة جاكلين الجلديّة كانا يذوبان في رتابة

Twitter: @ketab_n

ديكور الحيّ اللاتينيّ. أمّا أنا، فكنت أرتدي معطفاً واقياً من المطر لونه رمليّ[1] متّسخ، وأحمل بيدي كتباً. لا، لا أدري حقّاً ما الذي كان يمكن أن يلفت الانتباه إلينا.

سجّلت على استمارة فندق ليما أنّني «طالب في الدراسات الأدبيّة العليا»، لكنّ ذلك لم يكن سوى من باب الشكليّات، لأنّ الرجل الجالس في مكتب الاستقبال لم يطلب منّي مرّة أيّ معلومات. كان يكفيه أن أدفع بدل الغرفة كلّ أسبوع. في أحد الأيّام، كنت أهمّ بالخروج حاملاً حقيبة كتب أعتزم محاولة بيعها لصاحب مكتبة كنت أعرفه، حين بادرني قائلاً:

– ماذا عن دروسك؟ هل تجري على ما يرام؟

خُيّل لي في بادئ الأمر أنّني لمست في صوته شيئاً من السخرية ، لكن الواقع أنّه كان جادّاً تماماً.

كان فندق لا تورنيل يوفّر الهدوء ذاته مثل فندق ليما. كان فان بيفر وجاكلين النزيلين الوحيدين فيه. شرحا لي أنّ الفندق سيغلق قريباً وأنّه سيُحوَّل إلى شقق. تأكيداً على

(1) لون بنيّ فاتح قريب من لون الصّوف، ويُدعى في بعض العاميّات العربيّة باسمه في الفرنسيّة: «بيج». (جميع الحواشي وضعتها المترجمة.)

Twitter: @ketab_n

ذلك ، كان ضرب مطارق يسمع خلال النهار في الغرف المجاورة.

هل ملآ استمارة؟ وما كانت مهنتها؟ أجابني فان بيفر أنّ أوراقه تحمل الإشارة «بائع جوّال»، لكنّني لم أعرف إن كان يمزح. هزّت جاكلين كتفيها. هي لم تكن لها مهنة. بائع جوّال: كان بوسعي أنا أيضاً في مطلق الأحوال ادّعاء هذا اللقب، إذ كنت أقضي وقتي أحمل كتباً أجول بها من مكتبة إلى مكتبة.

كان الجوّ بارداً. تعاودني ذكرى الثلج الذائب على الرصيف وعلى أرصفة النهر، وألوان الشتاء المتدرّجة بين الأسود والرماديّ. وكانت جاكلين تخرج على الدوام في سترتها الجلديّة الخفيفة جدّاً في ذلك الموسم.

Twitter: @ketab_n

في أوّل مرّة غادر فيها فان بيفر وحيداً إلى فورج ليزو وبقيت جاكلين في باريس، كان ذلك في أحد أيّام الشتاء تلك. عبرنا نهر السين لنرافق فان بيفر إلى محطّة بون ماري للمترو، لأنّه كان يتحتّم عليه أن يستقلّ القطار في محطّة سان لازار. قال لنا إنّه قد يذهب أيضاً إلى كازينو دييب، وأنّه يودّ كسب المزيد من المال، أكثر من العادة. اختفى معطفه التويد ذو التعاريج في مدخل نفق المترو وبقينا معاً، أنا وجاكلين.

كنت أقابلها على الدوام مع فان بيفر، من غير أن تسنح لي الفرصة للتحدّث إليها فعليّاً. حتّى أنّها في بعض الأحيان لم تكن تتفوّه بكلمة واحدة طوال سهرة كاملة. أو تطلب أحياناً بنبرة قاطعة من فان بيفر أن يذهب ليحضر

Twitter: @ketab_n

لها سجائر، لكأنّها تريد التخلّص منه. ومنّي أنا أيضاً. لكنّني شيئاً فشيئاً اعتدت صمتها وجفاءها.

في ذلك اليوم، فيما كان فان بيفر ينزل سلالم المترو، ظننت أنّها نادمة لعدم مرافقته كالعادة. سلكنا رصيف لوتيل دو فيل[1] بدل أن نعود إلى الضفّة اليسرى. لم تكن تتكلّم. توقّعت أن تفارقني بين لحظة وأخرى، لكنّها لم تفعل. بل واصلت السير إلى جانبي.

كان ضباب رقيق يطفو فوق السين ويلفّ أرصفة النهر. لا بدّ أنّ جاكلين كانت تشعر بالبرد يخترق عظامها في تلك السترة الجلديّة الخفيفة جدّاً. كنّا نمشي بمحاذاة ساحة لارشوفيشيه، عند طرف جزيرة لا سيتيه[2]، حين أصيبت بنوبة سعال. استعادت أنفاسها أخيراً. قلت لها إنّه ينبغي أن تشرب كوباً ساخناً ودخلنا المقهى في شارع دانتي.

كانت تعمّه ضوضاء العصر الاعتياديّة. لمحنا خيالَين

(1) رصيف قصر البلديّة.

(2) L'île de la Cité جزيرة في نهر السّين في قلب باريس تعتبر المهد التاريخيّ للمدينة.

Twitter: @ketab_n

واقفين أمام آلة الفليبّر، لكنّ جاكلين لم تكن ترغب في اللعب. طلبْتُ لها مشروباً كحوليّاً ساخناً شربَتْه وعلى وجهها تكشيرة، وكأنّها تتجرّع سمّاً. قلت لها «يجدر بك عدم الخروج في هذه السترة». منذ تعرّفت عليها وأنا عاجز عن رفع الكلفة معها، فهي تضع نوعاً من المسافة بيني وبينها.

كنّا جالسين إلى طاولة في عمق القاعة، على مقربة من الفليبّر. انحنت صوبي، وقالت لي إنّ ما منعها من مرافقة فان بيفر هو أنّها لا تشعر بنفسها على ما يُرام. كانت تتكلّم خافضة صوتها، فقرّبتُ وجهي من وجهها. كاد جبينانا يتلامسان. أسرّت لي بأمر: حين ينتهي الشتاء، كانت تأمل في مغادرة باريس. لكن إلى أين ؟

– إلى مايوركا...

تذكّرْتُ الرسالة التي بعثَتْها بالبريد يوم لقائنا الأوّل، وعلى الظرف كُتِب «مايوركا».

– لكن من الأفضل لو نستطيع الرحيل غداً...

بدا وجهها فجأةً شديد الشحوب. كان أحد الجالسين بجوارنا وضع مرفقه على حافة طاولتنا، وكأنّه لا يرانا،

Twitter: @ketab_n

مواصلاً حديثاً مع رفيقه الجالس قبالته. لجأت جاكلين إلى طرف المقعد. طقطقات الفليبّر كانت تبعث فيّ إحساساً بالضيق.

أنا أيضاً كنت أحلم بالرحيل حين يذوب الثلج على الأرصفة وأنتعل خفّيّ القديمين.

– لماذا ننتظر نهاية الشتاء؟ سألتُها.

ابتسمت لي.

– لا بدّ لنا من ادّخار بعض المال أوّلاً.

أشعلَتْ سيجارة. وأخذت تسعل. كانت تدخّن بإسراف. ودائماً السجائر ذاتها التي تبعث رائحة مقزّزة بعض الشيء، رائحة تبغ فرنسيّ أشقر.

– ليس بيع كتبك هو ما سيمكّننا من جمع بعض المدّخرات.

كنت سعيداً لقولها هذا: تكلّمتْ بصيغة «نحن»، وكأنّنا أنا وهي صرنا مرتبطين بمستقبل مشترك.

– لا شكّ أنّ جيرار سيجلب مالاً وفيراً من فورج ليزو وديبب، قلت لها.

هزّت كتفيها.

Twitter: @ketab_n

– مضت ستّة أشهر ونحن نراهن على تركيبته الرابحة، لكنّها لا تدرّ علينا الكثير.

تركيبة الرهان تلك «على خمسة أرقام حول الصفر» لم تكن لتقنعها على ما يبدو.

– هل تعرفين جيرار منذ وقت طويل؟

– أجل... تعارفنا في أتيس مونس، في ضاحية باريس...

كانت تنظر في عينيّ مباشرة، بصمت. لا بدّ أنّها كانت تريد أن تُفهِمني أنّ ذلك هو كلّ ما يمكن قوله في المسألة.

– إذَن أنت من أتيس مونس؟

– أجل.

كنت أذكر جيّداً اسم تلك المدينة القريبة من أبلون، حيث كان أحد أصدقائي يسكن. كان يستعير سيّارة والديه فيقتادني في المساء إلى أورلي. كنّا نرتاد السينما وإحدى حانات المطار. نمكث حتّى ساعة متأخّرة من الليل، نستمع إلى إعلانات هبوط الطائرات وإقلاعها إلى وجهات نائية، ونحن نذرع الردهة الشاسعة. وحين يعيدني إلى باريس، لم نكن نسلك الطريق العامّ، بل نقوم

Twitter: @ketab_n

بجولة عبر فيلنوف لو روا، وأتيس مونس ومدن صغيرة أخرى من ضواحي جنوب باريس... كان من الممكن أن ألاقي جاكلين في تلك الفترة.

- هل سافرتِ كثيراً؟

كان ذلك من صنف الأسئلة التي تهدف إلى إحياء حديث سخيف، وطرحته مفتعلاً نبرة لامبالية.

- لا يمكن القول إنّني سافرت فعلاً، أجابت. لكن الآن، إن تمكنّا من الحصول على بعض النقود...

كانت تتكلّم خافضة صوتها أكثر، لكأنّها تريد أن تبوح لي بسرّ. وكان من الصعب عليّ سماعها، بسبب كل الجلبة المحيطة بنا. انحنيت نحوها، وكاد جبينانا يتلامسان مرّة جديدة...

- تعرّفنا أنا وجيرار على أميركيّ يكتب روايات... يعيش في مايوركا... سوف يجد لنا منزلاً هناك... التقينا به في المكتبة الإنكليزيّة، على رصيف النهر.

غالباً ما كنت أذهب إلى تلك المكتبة. كانت دهليزاً من القاعات الصغيرة، جدرانها مكسوّة بالكتب، يمكن أن نختلي بأنفسنا فيها. الزبائن يأتون من بعيد ويتوقّفون

Twitter: @ketab_n

فيها في استراحة. كانت تبقى مفتوحة حتّى ساعة متأخّرة من الليل. فيها اشتريت بعض الروايات من سلسلة تاوشنيتس[1]، حاولت لاحقاً إعادة بيعها. رفوف في العراء مع بعض المقاعد، وكنبة. يخال الواحد نفسه على رصيف مقهى. من هناك، كان بالإمكان رؤية كاتدرائيّة نوتر دام. ورغم ذلك، ما إن نعبر عتبة المدخل، حتّى نخال أنفسنا في أمستردام أو سان فرانسيسكو.

هكذا إذَن، تلك الرسالة التي وضعتها في صندوق البريد في ساحة الأوديون كانت موجّهة إلى ذلك «الأميركي الذي يكتب روايات...» ما كان اسمه؟ ربّما قرأتُ أحد كتبه...

– وليام ماكغيفرن...

لا، لم أكن أعرف ماكغيفرن ذاك. أشعلَتْ سيجارة جديدة. وسعلَتْ. كانت لا تزال شاحبة.

– أكيد أنّني أصبت بالإنفلونزا، قالت.

– يجدر بك تناول كأس ثانية من المشروب الساخن.

(1) Tauchnitz publishers دار نشر أسّستها عائلة تاوشنيتس الألمانية وطبعت العديد من الأعمال الأدبيّة البريطانيّة.

Twitter: @ketab_n

- لا، شكراً.

بدت فجأةً مهمومة.

- آمل أن تسير الأمور على ما يرام مع جيرار...

- أنا أيضاً...

- أشعر على الدوام بالقلق كلّما غاب جيرار...

لفظت اسم جيرار مشدّدةً على كلّ مقطع من الكلمة، بكثير من الحنان. صحيح أنّها كانت تعامله بقسوة في بعض الأحيان، لكنّها كانت تمسك بذراعه في الشارع، أو تضع رأسها على كتفه حين نجلس حول إحدى طاولات مقهى دانتي. في عصر أحد الأيّام، دققت على باب غرفتهما وقالت لي أن أدخل، فوجدتهما ممدّدين على أحد السريرين الضيّقين، ذاك القريب من النافذة.

- لا يمكنني الاستغناء عن جيرار...

قالت ذلك بعفويّة من غير أن تفكّر، وكأنّها تخاطب نفسها، غافلةً عن وجودي. أحسست بنفسي فجأة في غير محلّي. ربّما يجدر بي أن أتركها وحدها. وفي اللحظة التي كنت أبحث فيها عن عذر أتحجّج به لأغادر، نظرت إليّ نظرة تائهة في بادئ الأمر. ثمّ أبصرتني في نهاية الأمر.

Twitter: @ketab_n

بادرْتُ بنفسي إلى كسر الصمت.

- ماذا عن الإنفلونزا؟ هل تشعرين بتحسّن؟

- يجب أن أجد أقراصاً من الأسبرين. هل تعرف صيدليّة في الجوار؟

يمكن القول إنّ دوري كان يقتصر حتّى ذلك الحين على إرشادهما إلى أقرب مكاتب البريد والصيدليّات.

كان هناك صيدليّة قرب فندقي، في جادّة سان جرمان. لم تشتر فقط علبة أسبرين، بل كذلك قارورة من الأثير. واصلنا السير معاً بضع لحظات حتّى زاوية شارع برناردان. توقّفتْ أمام مدخل فندقي.

- يمكننا أن نتلاقى لاحقاً لتناول العشاء، إن أردت.

صافحتني وابتسمت لي. اضطررت إلى تمالك نفسي حتّى لا أطلب منها أن أبقى معها.

- تعال لاصطحابي قرابة الساعة السابعة، قالت لي.

انعطفَتْ عند مفرق الشارع. وقفْتُ أتأمّلها من غير أن يكون بوسعي تحويل نظري عنها، وهي تبتعد صوب رصيف النهر في سترتها الجلديّة غير المناسبة إطلاقاً

Twitter: @ketab_n

للشتاء، غارزةً يديها في جيبيها.

لزمت غرفتي طوال العصر. لم يعد هناك تدفئة، وتمدّدت على السرير من غير أن أخلع معطفي. كنت أغرق بين الحين والآخر في حالة ما بين النوم واليقظة، أو أسرح في نقطة من السقف وأنا أفكّر في جاكلين وجيرار فان بيفر.

أتراها عادت إلى فندقها؟ أم أنّها كانت على موعد في مكان ما من باريس؟ تذكّرت ذات مساء، حين تركتنا وحيدين، أنا وفان بيفر. ذهبنا معاً لمشاهدة فيلم في الجلسة الأخيرة، وبدا لي فان بيفر مهموماً. إن كان جرّني إلى السينما، فذلك لمجرّد تزجية الوقت بسرعة أكبر. صوب الواحدة صباحاً، وافينا جاكلين في مقهى في شارع كوجاس. لم تقل لنا كيف قضت أمسيتها. وفي مطلق الأحوال، لم يطرح عليها فان بيفر أيّ سؤال، وكأنّ وجودي يمنعهما من التكلّم بحريّة كاملة. في تلك الليلة، كنت دخيلاً عليهما. رافقاني إلى فندق ليبا، وهما يلزمان الصمت. كان ذلك يوم جمعة، عشيّة رحيلهما كعادتهما إلى دييب أو فورج ليزو.

Twitter: @ketab_n

سألتهما في أيّ ساعة سوف يستقلّان القطار.

– غداً نبقى في باريس، أجاب فان بيفر بنبرة جافّة.

فارقاني عند مدخل الفندق. وقال لي فان بيفر «إلى اللقاء غداً»، من غير أن يصافحني. أمّا جاكلين، فابتسمت لي ابتسامة مكرهة بعض الشيء. لكأنّها متخوّفة من البقاء وحيدة مع فان بيفر، وتفضّل وجود شخص ثالث معهما. رغم ذلك، حين تأمّلتهما وهما يبتعدان، رأيت فان بيفر يمسك بذراع جاكلين. ماذا كانا يقولان أحدهما للآخر؟ أكانت جاكلين تبرّر نفسها لأمر ما؟ أكان فان بيفر يؤنّبها؟ أمّ أنّها مجرّد أفكار تداعب خاطري؟

كان الليل هبط منذ وقت طويل حين خرجْتُ من الفندق. سلكت شارع برناردان حتّى رصيف النهر. دققت على بابها. فتحت لي. كانت ترتدي إحدى كنزاتها الرماديّة ذات الياقة العالية والضفائر، وسروالها الأسود الضيّق على الكاحلين، وكانت حافية القدمين. السرير قرب النافذة كان محلولاً، والستائر مسدلة. كان الغطاء أُزيل عن المصباح على منضدة الليل، غير أنّ المصباح

Twitter: @ketab_n

الصغير كان يترك مساحات من العتمة. ورائحة الأثير تلك لا تزال منتشرة، أقوى من العادة.

قعدَتْ على حافة السرير، وجلسْتُ على الكرسي الوحيد الموضوع لصق الجدار، قرب المغسلة.

سألتها إن كانت تشعر بأنّها أفضل حالاً.

- أفضل بقليل...

باغتتني أنظر إلى قارورة الأثير الموضوعة في وسط سطح منضدة الليل، وقد أزيلت سدّادتها. خطر لها حتماً أنّني كنت أشمّ الرائحة.

- آخذ منه لوقف السعال...

وردّدت بنبرة من يسعى لتبرير نفسه:

- حقّاً... إنّه ممتاز ضدّ السعال.

وإذ أدركَتْ أنّني على استعداد لتصديقها، سألتني:

- ألم تجرّب مرّة؟

- لا.

مدّت لي قطعة من القطن بلّلتها بالأثير. تردّدْتُ لثوانٍ قبل أن أتناولها منها، لكن إن كان من شأن ذلك أن يقيم رابطاً بيننا... تنشّقت قطعة القطن، ثمّ قارورة الأثير. ثمّ

Twitter: @ketab_n

فعلت هي بدورها. تغلغلت برودة في رئتيّ. كنت ممدّداً بجانبها. كنّا ملتصقين أحدنا بالآخر، نهوي في الفراغ. راح الإحساس المنعش بالبرودة يشتدّ، وتكتكة المنبّه تنبعث بوضوح متزايد وسط الصمت، حتّى أنّني كان بوسعي سماع صداها.

خرجنا من الفندق في حوالى الساعة السادسة صباحاً، ومشينا حتّى مقهى شارع كوجاس الذي يبقى مفتوحاً طوال الليل. هناك أعطياني موعداً في الأسبوع السابق، عند عودتهما من فورج ليزو. وصلا قرابة الساعة السابعة، وتناولنا الفطور معاً. غير أنّ سحنتهما لم تكن توحي بأنّهما قضيا ليلة بلا نوم، وكانا يفيضان حيويّة أكثر بكثير من العادة. وبالأخصّ جاكلين. كانا ربحا ألفي فرنك.

هذه المرّة، لن يعود فان بيفر من فورج بالقطار، بل في سيّارة شخص تعرّفا إليه في كازينو لانغرون، وهو من سكّان باريس. قالت لي جاكلين ونحن نخرج من الفندق، إنّه ربّما وصل إلى شارع كوجاس.

سألتها إن لم تكن تفضّل ملاقاته وحدها، وإن كان

Twitter: @ketab_n

حضوري ضروريّاً فعلاً. لكنّها هزّت كتفيها وأجابت أنّها تريدني أن أرافقها.

لم يكن هناك أحد سوانا في المقهى. أبهرني نور مصابيح النيون. في الخارج، كان الليل لا يزال حالكاً، وقد فقدتُ أيّ مفهوم للوقت. كنّا جالسَين جنباً لجنب على المقعد، قرب الواجهة الزجاجيّة، وساورني إحساس بأنّ الليل يبدأ للتوّ.

لمحْتُ عبر الزجاج سيّارة سوداء تتوقّف أمام المقهى. خرج منها فان بيفر، مرتدياً معطفه التويد. انحنى صوب السائق، ثمّ صفق الباب. جال بنظره بحثاً عنّا، من غير أن يجدنا. ظنّ أنّنا في عمق الصالة. كانت عيناه ترفّان في أضواء النيون. ثمّ اقترب وجلس قبالتنا.

لم يبدُ أنّ وجودي فاجأه، أمّ أنّه كان ربّما أكثر عياءً من أن يطرح على نفسه أسئلة. طلب على الفور فنجاناً مزدوجاً من القهوة وقطَع «كرواسان»[1].

- في نهاية الأمر، ذهبت إلى دبيب...

(1) كرواسان، من *الفرنسيّة Croissant*: نوع من المخبوزات الغنية بالزبدّة، سميّت كذلك لشكلها الهلاليّ (والكلمة تعني «هلال»).

Twitter: @ketab_n

لم يخلع معطفه، وأبقى على ياقته مرفوعة. كان يحني ظهره، مطأطئاً رأسه بين كتفيه، في وضعٍ أليفٍ غالباً ما يتّخذه حين يجلس، ويذكّرني بوضع الجَوكي. أمّا حين يقف، فينتصب مقوّماً ظهره، وكأنّه يريد أن يبدو أطول قامة.

- ربحت ثلاثة آلاف فرنك في دييب...

قالها بنبرة فيها قدر من التحدّي. ربّما كان يعبّر بذلك عن انزعاجه لكون جاكلين برفقتي. أمسك بيدها، وكان يتجاهلني.

- هذا جيّد!، قالت جاكلين.

كانت تداعب يده.

- سيكون بوسعكما شراء تذكرة طائرة إلى مايوركا، قلت.

رمقني فان بيفر بنظرة متعجّبة.

- أخبرته عن مشاريعنا، شرحت جاكلين.

- إذَن أنت على علم؟ آمل أن تأتي معنا...

لا، لم يبدُ في نهاية الأمر منزعجاً من وجودي. لكنّه كان لا يزال يخاطبني برسميّة. حاولت مراراً أن أرفع

Twitter: @ketab_n

الكلفة بيننا، من غير أن أفلح. فهو كان يردّ عليّ في كلّ مرّة بلهجة رسميّة.

- سوف آتي إن كنتما تقبلان بي، قلت لهما.

- بالطبع نقبل بك، أجابت جاكلين.

كانت تبتسم لي، ووضعَت يدها على يدي. حضر النادل حاملاً القهوة وقطَع «الكرواسان».

- لم أتناول شيئاً منذ أربع وعشرين ساعة، قال فان بيفر.

بدا وجهه شاحباً في نور النيون، وعيناه محاطتين بدائرتين داكنتين. ابتلع عدّة قطَع «كرواسان» بسرعة، الواحدة تلو الأخرى.

- إنّني أحسن حالاً الآن... غفوت قبل قليل في السيّارة...

أمّا جاكلين، فبدت في وضع أفضل. لم تعد تسعل. هل كان ذلك نتيجة الأثير؟ تساءلت إن لم تكن تلك الساعات التي قضيتها معها مجرّد حلم راودني... ذلك الإحساس بالفراغ، بالانتعاش والخفّة، كلانا في سرير ضيّق للغاية، الارتعاشات التي كانت تعترينا مثل دوّامة، وقع صوتها

Twitter: @ketab_n

يبعث صدى أقوى من تكتكة المنبّه. كلّمتني آنئذ بحميميّة. وها هي تعاود مخاطبتي برسميّة. وجيرار فان بيفر هنا. لا بدّ لي من الانتظار إلى حين يذهب من جديد إلى فورج ليزو أو دييب، ومن غير المؤكّد حتّى أن تبقى حينئذ معي في باريس.

- وأنتما، ماذا فعلتما؟

خلتُ للحظة أنّ شكوكاً تساوره. لكنّه طرح ذلك السؤال ساهماً، كأنّما من باب العادة.

- لا شيء بالتحديد، أجابت جاكلين. ذهبنا إلى السينما.

كانت تحدّق مباشرة في عينيّ، وكأنّها تريد إشراكي في تلك الكذبة. كانت لا تزال تضع يدها على يدي.

- وأيّ فيلم شاهدتما؟

- مونفليت[1]، أجبت.

- هل أعجبكما؟

أبعد يده عن يد جاكلين.

- كان رائعاً.

---

(1) Moonfleet أو حسب اسمه بالفرنسيّة Les Contrebandiers de Moonfleet فيلم للمخرج فريتس لانغ.

Twitter: @ketab_n

تأمّلَنا متفرّساً في وجهينا الواحد تلو الآخر. جابهَتْ جاكلين نظرته.

- بودّي أن ترويا لي قصّة الفيلم... ولكن في يوم آخر... لديكما متّسع من الوقت...

تكلّم بنبرة ساخرة، ولمست قليلاً من التخوّف على ملامح جاكلين. كانت مقطّبة. سألتُه في نهاية الأمر:

- هل تريد العودة إلى الفندق؟

أمسكَتْ بيده من جديد. كانت تتناسى وجودي.

- ليس في الحال... سوف أتناول فنجان قهوة ثانياً...

- وبعد ذلك نعود إلى الفندق، ردّدَت بصوت رقيق.

أدركْتُ فجأةً الساعة الصباحيّة المبكرة، وقد فارقني إحساسي بالنشوة. كلّ ما أعطى تلك الليلة سحرها كان يتبدّد. لم يبقَ سوى فتاة سمراء في سترة جلديّة بنيّة، شاحبة الوجه، جالسة قبالة رجل في معطف منقّش بالتعاريج. يمسك أحدهما يد الآخر في أحد مقاهي الحيّ اللاتينيّ. سوف يعودان معاً إلى الفندق. ليبدأ يوم شتائيّ جديد، يعقب سلسلة طويلة من الأيّام الأخرى. وسيترتّب عليّ من جديد أن أهيم في كآبة جادّة سان ميشال، وسط كلّ

Twitter: @ketab_n

هؤلاء الأشخاص المتوجّهين إلى مدارسهم أو كليّاتهم. أشخاص بعمري، غير أنّهم غرباء تماماً بالنسبة لي. لم أكن أكاد أفهم لغتهم. أسررت إلى فان بيفر في أحد الأيّام أنّ بودّي الانتقال من ذلك الحيّ، لأنّني لم أكن أشعر بالارتياح وسط كلّ هؤلاء الطلّاب. فأجابني:

- سيكون هذا خطأ. لا يمكن تمييزنا ونحن بينهم.

أشاحت جاكلين بوجهها، وكأنّ الموضوع لا يعنيها، وأنّها تخشى أن يبوح لي فان بيفر بأسرار.

- لماذا؟ سألْتُه. هل تخشى أن يتمّ رصدك؟

لم يجبني. لكنّني لم أكن بحاجة إلى أيّ تفسير. فأنا أيضاً كنت أخشى على الدوام أن أُرصَد.

- ما رأيك إذَن؟ نعود إلى الفندق؟

كانت لا تزال تتكلّم بذلك الصوت الرقيق، وهي تداعب يده. تذكّرت ما قالت لي عصراً، في مقهى دانتي: «لا يمكنني الاستغناء عن جيرار». سوف يدخلان إلى الغرفة. هل سيتنشّقان الأثير مثلما فعلنا بالأمس؟ لا. فحين غادرنا الفندق قبل قليل، أخرجت جاكلين من جيب سترتها قارورة الأثير ورمتها في مزراب لتصريف

Twitter: @ketab_n

المياه، على مسافة ضئيلة، على رصيف النهر.

– وعدتُ جيرار بأن أتوقّف عن تعاطي هذه القذارة.

من الواضح أنّني لم أكن أوحي لها شخصيّاً بمثل هذه الهواجس. شعرت بالخيبة، لكنّ إحساساً غامضاً بالتواطؤ خالجني في الوقت نفسه، فهي أرادت أن تتقاسم معي أنا هذه «القذارة».

رافقتها إلى رصيف النهر. وعند عبور مدخل الفندق، مدّ لي فان بيفر يده.

– إلى اللقاء.

كانت هي تتفادى نظري.

– نلتقي بعد قليل في مقهى دانتي، قالت لي.

رأيتها يصعدان الأدراج. كانت تمسك بذراعه. بقيت واقفاً هناك، بلا حراك، عند المدخل. ثمّ سمعت باب غرفتها يُغلَق.

تبعْتُ رصيف لا تورنيل، ماشياً بمحاذاة صفّ أشجار الدلب العارية، في الضباب والبرد البليل. كنت مرتاحاً على الأقلّ لانتعال حذاء للثلج، لكنّني كنت متوجّساً قليلاً من تلك الغرفة غير المدفّأة بشكل جيّد، وذلك

Twitter: @ketab_n

السرير من الخشب البنيّ. فان بيفر ربح ثلاثة آلاف فرنك في دييب. كيف لي أنا أن أربح مبلغاً بهذا الحجم؟ حاولت تقييم الكتب القليلة المتبقّية لي للبيع. لم تكن ذات قيمة تُذكر. في مطلق الأحوال، لو كان في متناولي أموال طائلة، فأنا أعتقد أنّ جاكلين ما كانت اكترثت للأمر إطلاقاً.

قالت لي «نلتقي بعد قليل في مقهى دانتي». بقيت غامضة في كلامها. سيترتّب عليّ إذَن أن أنتظرهما عصراً، ثمّ عصرَ يوم آخر، مثلما فعلت في المرّة الأولى. وكلّما طال الانتظار، راوَدتني فكرة سوف تشغل بالي بالكامل في نهاية المطاف: لم تعد تودّ رؤيتي بسبب ما حصل بيننا الليلة الماضية. صرت بنظرها شاهداً مزعجاً.

كنت أرتقي جادّة سان ميشال، ويراودني انطباع بأنّني أراوح مكاني منذ زمن بعيد على الأرصفة ذاتها، أسير ذلك الحيّ من غير أسباب محدّدة. سوى لسبب واحد، وهو أنّني أحمل في جيبي بطاقة طلّابيّة زائفة لإضفاء شرعيّة إلى وضعي، ويجدر بي بالتالي أن أرتاد حيّاً طلّابيّاً.

حين وصلت أمام فندق ليما، تردّدت في الدخول. لكن لم يكن بوسعي البقاء طوال النهار في الخارج، وسط هذه

Twitter: @ketab_n

الجموع من الأشخاص الذين يحملون محفظات جلديّة وحقائب مدرسيّة، ويتوجّهون إلى الثانويّات وجامعة السوربون ومعهد ليكول دي مين[1]. تمدّدت على السرير. الغرفة أضيق من أن أفعل أيّ شيء آخر، فلا كرسيّ فيها ولا أريكة.

كان برج جرس الكنيسة يرتسم في إطار النافذة، وكذلك أغصان شجرة كستناء وددت لو كانت مكسوّة بالأوراق، غير أنّه لا يزال يتعيّن الانتظار شهراً حتّى يحلّ الربيع. لم أعد أذكر إن كنت أفكّر في تلك الفترة في المستقبل. أعتقد بالأحرى أنّني كنت أحيا في الحاضر، وتراودني في الوقت نفسه خطط مبهمة للفرار، كما في هذا اليوم، والأمل في ملاقاتها، هو وجاكلين، بعد قليل في مقهى دانتي.

(1) École des Mines: كلّية هندسة مرموقة.

Twitter: @ketab_n

كانت الساعة تقارب الواحدة صباحاً حين عرّفاني في وقت لاحق على كارتو. كنت انتظرتهما في العشيّة بلا جدوى في مقهى دانتي، من غير أن أجرؤ على زيارتهما في الفندق. تناولت طبقاً في أحد المطاعم الصينيّة في شارع سومرار. كان احتمال ألّا أعود أرى جاكلين بعد ذلك اليوم يقطع شهيّتي، فأحاول أن أطمئن نفسي بالقول إنّهما لن يغادرا الفندق بين ليلة وضحاها، وحتّى لو غادرا فسوف يتركان عنوانهما مع حارس البناية من أجلي. لكن ما هي تحديداً الأسباب التي تحدوهما لترك عنوانهما لي؟ لا يهمّ، سوف أجوب كازينوهات دييب وفورج ليزو السبت والأحد بحثاً عنهما.

مكثت لوقت طويل في المكتبة الإنكليزيّة على رصيف

Twitter: @ketab_n

النهر، من ناحية كنيسة سان جوليان لو بوفر. اشتريت فيها كتاباً بعنوان «رياح عاتية في جامايكا»[1]، كنت قرأته وأنا في حوالى الخامسة عشرة من العمر بالفرنسيّة بعنوان «إعصار في جامايكا». رحت أهيم في الشوارع، قبل أن يصل بي الأمر إلى مكتبة أخرى، كانت هي أيضاً تُفتح حتّى ساعة متأخّرة من الليل، في شارع سان سيفران. ثمّ عدت إلى غرفتي وحاولت المطالعة.

خرجت من جديد، وقادتني خطاي إلى المقهى في شارع كوجاس حيث كنّا اجتمعنا في الصباح. شعرت بقلبي ينقبض: كانا جالسين إلى الطاولة ذاتها، قرب الواجهة الزجاجيّة، برفقة رجل أسمر. كان فان بيفر إلى يمينه. لم أعد أرى سوى جاكلين قبالتهما، جالسة وحدها على المقعد، كاتفة ذراعيها. ها هي هناك، خلف الزجاج، في النور الأصفر، ويؤسفني ألّا يكون بمقدوري إعادة عقارب الساعة إلى الوراء. لكنت ألفيتُني على رصيف شارع كوجاس، في الموقع ذاته كما في الماضي، لكن مثلما أنا

(1) *A High Wind in Jamaica* للكاتب البريطانيّ ريتشارد هيوز Richard Hughes.

Twitter: @ketab_n

اليوم، ولما وجدت أيّة صعوبة في إخراج جاكلين من ذلك الأكواريوم، لأعيدها إلى الهواء الطلق.

شعرت بالإحراج وأنا أتقدّم صوب طاولتهما، وكأنّني أردت أن أباغتهما. حين لمحني فان بيفر، بادرني بإشارة وديّة بذراعه. أمّا جاكلين، فابتسمت لي دون أن يبدو عليها أنّها فوجئت البتّة. قام فان بيفر بتقديمي للرجل الآخر:

– بيار كارتو...

صافحته وجلست على المقعد بالقرب من جاكلين.

– كنتَ تمرّ في الحيّ؟ سألني فان بيفر بنبرة لبقة وكأنّه يكلّم شخصاً يعرفه عن بُعد.

– أجل... بالصدفة تماماً...

كنت مصمّماً على البقاء في مكاني، على المقعد. كانت جاكلين تتفادى نظرتي. أكان وجود كارتو هو ما يجعلهما فاترين معي إلى هذا الحدّ؟ لا بدّ أنّني قاطعت حديثهم.

– هل تودّ تناول شيء؟ سألني كارتو.

كان صوته عريضاً، رخيماً، صوت رجل معتاد على الكلام وعلى إقناع الآخرين.

Twitter: @ketab_n

– كوب من شراب الرمّان.

كان أكبر سنّاً منّا، يناهز الخامسة والثلاثين. أسمر، متناسق الملامح. ويرتدي بذلة رماديّة.

عند خروجي من الفندق، دسست في جيب معطفي الواقي من المطر كتاب «رياح عاتية في جامايكا». كنت أشعر بالطمأنينة حين أحمل معي باستمرار رواية أحبّها. وضعت الكتاب على الطاولة ورحت أنقّب في جيبي بحثاً عن علبة سجائر، فلاحظ كارتو.

– أنت تقرأ الإنكليزيّة؟

رددت إيجاباً. وبما أنّ جاكلين وفان بيفر بقيا صامتين، قال في نهاية الأمر:

– هل تعرفون بعضكم بعضاً منذ فترة طويلة؟

– التقينا في الحيّ، شرحتْ جاكلين.

– آه أجل... فهمت...

ما الذي فهمه بالضبط؟ أشعل سيجارة.

– وترافقهما أيضاً إلى الكازينوهات؟

– لا.

كان فان بيفر وجاكلين لا يزالان على تحفّظهما. ما الذي

Twitter: @ketab_n

يمكن أن يحرجهما في حضوري؟

- إذَن لم ترهما يوماً يراهنان أمام عجلة الرّوليت ثلاث ساعات على التوالي...

قهقه ضاحكاً.

التفتت جاكلين صوبي.

- التقينا بالسيّد في لانغرون، قالت لي.

- رصدتُهما على الفور، روى كارتو. كانا يلعبان بأسلوب من أغرب ما يكون...

- ما الغرابة فيه؟ سأل فان بيفر مدّعياً السذاجة.

- نتساءل في مطلق الأحوال عمّا جاء بك إلى لانغرون، قالت جاكلين وهي تبتسم له.

كان فان بيفر اتّخذ جلسة الجوكي المعهودة له، مقوّساً ظهره، وغارزاً رأسه بين كتفيه. لم يكن يبدو مرتاحاً.

- هل تلعب في الكازينو؟ سألْتُ كارتو.

- ليس بالتحديد. أجد متعة في الدخول إلى الكازينو، هكذا، لمجرّد التسلية... حين يكون لديّ وقت فراغ...

وما عساه يكون نشاطه خارج أوقات الفراغ؟

Twitter: @ketab_n

استرخى فان بيفر وجاكلين شيئاً فشيئاً. هل كانا يخشيان أن أتلفّظ بكلمة يمكن أن يمتعض منها كارتو، أم كانا يخافان أن يكشف هو في سياق الحديث عن أمر يودّان إخفاءه عليّ؟

– والأسبوع المقبل... فورج؟

كان كارتو يقلّب النظر بينهما، مستطرِفاً المسألة.

– بالأحرى دييب، قال فان بيفر.

يمكنني أن أقلّكما إلى هناك في السيّارة، الرحلة سريعة جدّاً...

التفَتَ إلينا أنا وجاكي:

– بالأمس قضينا أكثر من ساعة بقليل للعودة من دييب...

هو الذي أعاد إذَن فان بيفر إلى باريس. تذكّرت السيّارة السوداء المتوقّفة في شارع كوجاس.

– ستكون بادرة لطيفة إن فعلت ذلك، قالت جاكلين.

أمر متعب للغاية أن نستقلّ القطار في كلّ مرّة...

كانت تنظر إلى كارتو نظرة غريبة، وكأنّ له تأثيراً شديداً

Twitter: @ketab_n

في نفسها، ولا يسعها سوى أن تشعر بقدر من الإعجاب حياله. هل لاحظ فان بيفر ذلك؟

- من دواعي سروري أن أسدي لكما هذه الخدمة، أجاب كارتو. آمل أن تنضمّ إلينا...

كان يحدّق بي بنظرته الساخرة. لكأنّه انتهى من تقييمي، فقدّر أنّني أستحقّ أن يتلطّف بي من عليائه.

- لست من روّاد كازينوهات الأطراف، قلت له بنبرة جافّة.

بدا ممتعضاً من جوابي. جاكلين أيضاً فوجئت بردّي. أمّا فان بيفر، فلم يحرّك ساكناً.

- أنت مخطئ. كازينوهات الأطراف مسلّية للغاية...

كانت نظرته تنمّ عن قسوة. لا بدّ أنّني أصبته في الصميم. لم يكن يتوقّع ملاحظة من هذا النوع من جانب فتى يبدو على هذا القدر من الخجل. لكنّني أردت أن أبدّد الحرج، فقلت:

- أنت على حقّ... إنّها مسلّية... وعلى الأخصّ لانغرون...

أجل، كان بودّي أن أعرف ما الذي كان يفعله في

Twitter: @ketab_n

لانغرون حين التقى بجاكلين وفان بيفر. كنت أعرف هذا المكان لأنّني قضيت فيه عصراً كاملاً برفقة أصدقاء العام الماضي، أثناء رحلة إلى النورماندي. لم يكن بوسعي تصوّره هناك على الإطلاق، في بذلته الرماديّة، يمشي بمحاذاة الفيلات المتداعية على طول خطّ البحر تحت المطر، بحثاً عن الكازينو. كنت أذكر بشكل مبهم أنّ الكازينو لم يكن في لانغرون، بل على مسافة بضع مئات الأمتار، في لوك سور مير.

- هل أنت طالب؟

سألني أخيراً السؤال المحتوم. أردت في بادئ الأمر أن أقول له أنْ نعم، لكنّ هذا الجواب المقتضب البسيط سيعقّد الأمور، لأنّه سيترتّب عليّ بعد ذلك تحديد نوع الدروس التي أتابعها.

- لا، أنا أعمل لحساب مكتبات.

كنت آمل أن يكتفي بهذا القدر. هل طرح السؤال ذاته على جاكلين وفان بيفر؟ وما كان جوابها؟ هل قال له فان بيفر إنّه بائع متجوّل؟ أشكّ في ذلك.

Twitter: @ketab_n

– أنا كنت طالباً، في الجهة المقابلة تماماً...

كان يشير لنا إلى مبنى صغير، في الجانب الآخر من الشارع.

– كان ذلك المعهد الفرنسيّ لتقويم العظام... بقيت فيه سنة... ثمّ انتقلت إلى معهد طبّ الأسنان في جادّة شوازي...

كان في تلك اللحظة يحدّثنا كمن يفرغ جعبة أسراره. هل كان صادقاً حقّاً؟ ربّما يودّ أن يجعلنا ننسى أنّه لم يكن من عمرنا ولم يعد طالباً.

– اخترت معهد طبّ الأسنان حتّى أتوجّه نحو شيء محدّد ودقيق. كنت ميّالاً أكثر إلى التسكّع، مثلكم...

الحقيقة أنّني لم أكن أجد سوى تفسير واحد لكون ذلك الرجل البالغ الخامسة والثلاثين، في بذلته الرماديّة، لا يزال جالساً معنا في مثل تلك الساعة المتأخّرة من الليل في مقهى بالحيّ اللاتيني: فهو مهتمّ بجاكلين.

– هل تودّون تناول كأس أخرى؟ أنا سأطلب كأساً ثانية من الويسكي...

لم يُبدِ فان بيفر وجاكلين أدنى تململ. أمّا أنا، فبقيت

Twitter: @ketab_n

جالساً على المقعد، كما في تلك الأحلام المزعجة حيث لا يعود بوسع الواحد النهوض إذ يشعر بساقيه ثقيلتين كالرصاص. بين الحين والآخر، كنت ألتفت صوب جاكلين. كان بودّي لو أعرض عليها أن نغادر ذلك المقهى ونمشي معاً حتّى محطّة غار دو ليون. لكنّا صعدنا في قطار ليليّ ووصلنا في صباح اليوم التالي إلى ساحل اللازورد أو إلى إيطاليا.

كانت السيّارة مركونة على مسافة قريبة إلى أعلى شارع كوجاس، في ذلك الموقع من الرصيف حيث تنتشر أدراج ودرابزين حديديّ. جلست جاكلين في المقعد الأماميّ.

سألني كارتو عن عنوان فندقي، وسلكنا شارع سان جاك وصولاً إلى جادّة سان جرمان.

- أستنتج إذَن أنّكم تنزلون جميعكم في فنادق...

التفت صوبنا أنا وفان بيفر. كان ينظر إلينا من جديد وعلى وجهه ابتسامة ساخرة أعطتني انطباعاً بأنّنا كلينا لا نعني بنظره الكثير.

- يمكن القول إذَن إنّها حياة بوهيميّة...

Twitter: @ketab_n

ربّما كان يبحث عن نبرة ما بين المزاح والتواطؤ. وفي هذه الحال، كان أخرق في كلامه، مثل أولئك الأكبر سنّاً الذين يشعرون بالرهبة أمام الشبيبة.

– وإلى متى تعتزمون العيش في فنادق؟

كان يتوجّه بالكلام إلى جاكلين. كانت تدخّن وتنفض رماد سيجارتها من النافذة المشقوقة.

– إلى أن يصبح بوسعنا مغادرة باريس، أجابت. وهذا سيتوقّف على صديقنا الأميركي المقيم في مايوركا.

عبثاً فتّشْتُ قبل قليل عن كتاب لماكغيفرن ذاك في المكتبة الإنكليزيّة على رصيف النهر. الدليل الوحيد على وجوده كان ذلك الظرف الذي رأيته في اليوم الأوّل في يد جاكلين، والذي كان يحمل عنوان مايوركا. لكنّني لم أكن واثقاً من أنّ اسم المرسل إليه كان فعلاً «ماكغيفرن».

– هل أنت واثقة من أنّ بوسعكم الاعتماد عليه حقّاً؟ سأل كارتو.

بدا فان بيفر بجانبي مرتبكاً. جاكلين هي التي ردّت في النهاية:

– طبعاً... فهو عرضَ علينا أن نأتي إلى مايوركا.

Twitter: @ketab_n

كانت تتكلّم بصوت قاطع واضح لم أسمعه من قبل. خُيّل لي أنّها تسعى بتلويحها بذلك «الصديق الأميركيّ» إلى تهييب كارتو وجعْله يعي أنّه ليس، هو كارتو، الوحيد المهتمّ بها وبفان بيفر.

أوقف السيّارة أمام فندقي. هكذا إذَن، ألفيتني مرغماً على مفارقتها، وكنت أخشى ألّا أعود أراها، كما في ما بعد الظهائر تلك حين كنت أنتظرها في مقهى دانتي. لن يعيدها كارتو إلى فندقها على الفور، وسوف ينهون حتماً الليلة معاً، في مكان ما على الضفّة اليمنى. أو ربّما يذهبون لتناول كأس أخيرة في الحيّ. لكنّهم يفضّلون قبل ذلك التخلّص منّي.

خرج فان بيفر من السيّارة تاركاً الباب مفتوحاً. خُيّل لي أنّني لمحت يد كارتو تلامس ركبة جاكلين، لكنّني قد أكون توهّمت ذلك في العتمة.

قالت لي «إلى اللقاء» من طرف شفتيها. وبادرني كارتو قائلاً بقلّة اكتراث «طابت ليلتك». من الواضح أنّني كنت غير مرغوب فيّ. أمّا فان بيفر، فبقي واقفاً على الرصيف إلى أن غادرت مقعدي. صافحني وقال لي «إلى اللقاء ربّما في

Twitter: @ketab_n

أحد الأيّام في مقهى دانتي».

وصلت إلى مدخل الفندق والتفتّ. أومأ لي فان بيفر بذراعه وعاد إلى السيّارة صافقاً الباب. كان يجلس بمفرده على المقعد الخلفيّ.

انطلقت السيّارة متّجهة نحو السين. تلك كانت أيضاً طريق محطّة أوسترليتز ومحطّة غار دو ليون، وقلت لنفسي إنّهم سيغادرون باريس.

قبل الصعود إلى غرفتي، طلبت من الحارس الليليّ دليلاً للهاتف، لكنّني لم أكن أعرف بعد كيف يُكتب اسم كارتو تحديداً. عثرت على «كارتو»، «كارتوه»، «كَرتو»، «كَرتُه»، ولم يكن أيّ منهم يدعى بيار.

لم أجد سبيلاً للنوم، وكنت نادماً على عدم طرحي أسئلة على كارتو ذاك. لكن هل كان سيجيب عليها؟ إن كان درسَ فعلاً في معهد طبّ الأسنان، فهل يزاول هذه المهنة حاليّاً؟ حاولت أن أتصوّره مرتدياً مريول طبيب الأسنان الأبيض، يستقبل الزبائن في عيادته. ثمّ عادت بي أفكاري إلى جاكلين ويد كارتو على ركبتها. ربما يمكن

Twitter: @ketab_n

لفان بيفر نفسه إعطائي بعض التوضيحات. غفوت وكان نومي مضطرباً. كانت الأسماء تتعاقب في أحلامي بأحرف مضيئة. كارتو، كارتوه، كرته، كرتو.

Twitter: @ketab_n

استيقظت قرابة الساعة الثامنة: كان أحدهم يدقّ على باب غرفتي. كانت تلك جاكلين. لا بدّ أنّني بدوت لها تائهاً مضعضعاً، كمن يخرج من نوم مروّع. قالت لي إنّها تنتظرني في الخارج.

كان الوقت ليلاً. بوسعي رؤيتها من النافذة. كانت جالسة على المقعد، من الطرف الآخر من الجادّة، وقد رفعت ياقة سترتها الجلديّة ودسّت يديها في الجيبين للاحتماء من البرد.

مشينا معاً نحو نهر السين ودخلنا المقهى الأخير قبل سوق النبيذ. بأيّ صدفة كانت هناك، أمامي؟ ما كنت سأتصوّر على الإطلاق في اليوم السابق، عند خروجي من سيّارة كارتو، أمراً بهذه البساطة. كلّ ما خطر لي هو أنّني

Twitter: @ketab_n

سوف أنتظرها عبثاً طيلة عصرِ أيّام عديدة في مقهى دانتي. شرحَتْ لي أنّ فان بيفر غادر بالأمس إلى أتيس مونس ليجلب وثيقتي ولادة لهما حتّى يحصلا على جوازي سفر جديدين. فهما فقدا جوازَي سفرهما القديمين خلال رحلة إلى بلجيكا قبل ثلاثة أشهر.

لم تعد تعاملني باللامبالاة تلك التي بلبلتني مساء اليوم السابق، حين باغتُّهما مع كارتو. ألفيتها من جديد كما كانت في الأوقات التي قضيناها معاً. سألتها إن كانت شفيت من الإنفلونزا.

هزّت كتفيها. كان البرد أشدّ من الأمس، وهي لا تزال ترتدي تلك السترة الجلديّة الرقيقة.

- يجب أن يكون لديك معطف حقيقيّ، قلت لها.

حدّقت في عينيّ مباشرة وهي تبتسم ابتسامة ساخرة بعض الشيء.

- وما هو المعطف الحقيقي برأيك؟

دهمني ذلك السؤال. أضافت وكأنّها تريد أن تطمئنني:

- في مطلق الأحوال، الشتاء سوف ينتهي قريباً.

كانت تترقّب أخباراً من مايوركا. وتلك الأخبار

Twitter: @ketab_n

لا يمكن أن تتأخّر. كانت تأمل في الرحيل عند الربيع. وبالطبع، بوسعي الانضمام إليهما إن أنا شئت. اطمأنّ بالي حين أكّدَتْ لي ذلك مرّة جديدة.

– وكارتو؟ هل وردتك أخبار منه؟

قطّبَت عند سماع اسم كارتو. طرحْتُ السؤال عليها بنبرة غير مكترثة، وكأنّني أحدّثها في عموميّات بلا أهميّة.

– أنت تذكر اسمه؟

– إنّه اسم يسهل حفظه.

وكارتو ذاك، هل يزاول مهنة؟ أجل، يعمل في عيادة طبيب أسنان، في جادّة أوسمان، بالقرب من متحف جاكمار أندريه.

أشعلَتْ سيجارة بحركة عصبيّة.

– ربّما يقرضنا بعض المال. هذا سيساعدنا في رحلتنا.

بدت وكأنّها تترقّب ردّ فعلي.

– هل هو ثريّ؟ سألتها.

ابتسمَت.

– كنتَ تتكلّم عن معطف قبل قليل... حسناً، سأطلب منه أن يهديني معطفاً من الفرو...

Twitter: @ketab_n

وضعَتْ يدها على يدي، مثلما رأيتها تفعل مع فان بيفر في المقهى بشارع كوجاس، وأدنت وجهها من وجهي.

- كن مطمئنّاً، قالت لي. لا أحبّ إطلاقاً معاطف الفرو.

في غرفتي، أغلقت الستائر السوداء. لم يسبق أن فعلت ذلك من قبل، لأنّ لون تلك الستائر كان يبعث فيّ الوجل، وفي كلّ مرّة كان نور النهار يوقظني. كان الضوء ينسلّ من فتحة الستائر. أمر غريب أن أرى سترتها وملابسها مبعثرة على الأرضيّة الخشبيّة. غفونا بعد وقت طويل. أيقظني وقع خطى صعوداً ونزولاً على الأدراج، لكنّني لم أحرّك ساكناً. كانت لا تزال نائمة، مسندةً رأسها على كتفي. ألقيت نظرة إلى ساعتي. كانت الساعة الثانية بعد الظهر.

قالت لي وهي تغادر غرفتي إنّ من الأفضل ألّا نتقابل في المساء. فلا بدّ أنّ فان بيفر عاد منذ وقت طويل من أتيس مونس وينتظرها على رصيف لا تورنيل. لم أشأ أن أسألها كيف تعتزم تبرير غيابها.

حين ألفيتُني وحيداً، انتابني الإحساس بأنّني عدت

Twitter: @ketab_n

إلى النقطة التي كنت عندها في اليوم السابق: ألفيتُني من جديد غير واثق من أيّ شيء، ولا حيلة بيدي سوى الانتظار هناك، أو في مقهى دانتي، أو ربّما القيام بجولة في شارع كوجاس قرابة الواحدة صباحاً. ثمّ سيحين يوم السبت، ويغادر فان بيفر من جديد إلى فورج ليزو أو إلى دييب، ونرافقه إلى محطّة المترو. وإن قبِل بأن تبقى في باريس، فسيكون الأمر كما في المرّة السابقة تماماً. وهكذا دواليك حتّى نهاية الأزمنة.

جمعْتُ في حقيبتي الكبيرة من القماش القطنيّ الرمليّ اللّون ثلاثة أو أربعة من كتب الفنّ ونزلت الأدراج.

سألت الرجل الجالس عند مكتب الاستقبال إن كان لديه دليل لشوارع باريس، فناولني واحداً أزرق اللون، بدا لي جديداً. استعرضت كلّ الأرقام في جادّة أوسمان إلى أن عثرت عند الرقم 158 على متحف جاكمار أندريه. كان هناك فعلاً في الرقم 160 طبيب أسنان يدعى بيار روب. دوّنت رقم هاتفه: فاغرام 1318. فقد أحتاج إليه. ثمّ مشيت حاملاً بيدي الحقيبة الكبيرة ذات اللّون الرمليّ حتّى مكتبة سان جوليان لو بوفْر الإنكليزيّة، حيث نجحت في بيع

Twitter: @ketab_n

أحد كتبي بعنوان «الفيلّات الإيطاليّة وحدائقها» لقاء مائة وخمسين فرنكاً.

Twitter: @ketab_n

تردّدت للحظة أمام المبنى رقم 160 من جادّة أوسمان وعبرت البوّابة. كانت لوحة معلّقة على الجدار تحمل الأسماء والطوابق مطبوعة بأحرف عريضة:

الدكتور ب. روب – ب. كارتو

الطابق الثاني

لم يكن اسم كارتو مكتوباً بالأحرف ذاتها كالأسماء الأخرى، وبدا لي أنّه أضيف إلى القائمة. قرّرت أن أدقّ على باب الطابق الثاني، لكنّني لم أستخدم المصعد الذي كان مصراعاه المزجّجان وشبكته الحديديّة تلتمع في العتمة. صعدت الأدراج ببطء وأنا أحضّر ما سأقوله لمن سيفتح لي: عندي موعد مع الدكتور كارتو. وإن أدخلوني إلى عيادته، فسوف أكلّمه بنبرة لعوب، نبرة من يزور

Twitter: @ketab_n

صديقاً له على بغتة، إنّما بفارق واحد، هو أنّه لم يقابلني سوى مرّة واحدة وقد لا يعرفني.

كانت لوحة ذهبيّة اللون معلّقة على الباب، قرأت عليها: «طبيب-جرّاح أسنان».

دققتُ الجرس مرّة، مرّتين، ثلاث مرّات، من غير أن يجيب أحد.

خرجت من المبنى. بعد متحف جاكمار أندريه، كان هناك مقهى أمامه سطيحة مزجّجة. اخترت طاولة يمكنني أن أراقب منها مدخل الرقم 160. جلست أنتظر وصول كارتو. لم أكن واثقاً حتّى من أنّه يعني الكثير لجاكلين وفان بيفر. كان من أولئك الأشخاص الذين نلتقي بهم بالصدفة. وقد لا يريان كارتو أبداً بعد ذلك في حياتهما.

باتت الساعة الخامسة مساء، وقد تناولت عدّة أكواب من شراب الرمّان. بدأت أنسى في نهاية المطاف لأيّ سبب تحديداً كنت جالساً أنتظر على رصيف ذلك المقهى. لم أطأ الضفّة اليمنى منذ أشهر، وفي تلك اللحظة بدا لي رصيف لا تورنيل والحيّ اللاتيني على مسافة آلاف الكيلومترات.

Twitter: @ketab_n

أخذ اللّيل يهبط. والمقهى الذي كان مقفراً حين اخترت طاولتي، أخذ يمتلئ شيئاً فشيئاً بروّاد خارجين على الأرجح من المكاتب في الجوار. وكنت أسمع ضجيج آلة الفليبّر، كما في مقهى دانتي.

توقّفَتْ سيّارة سوداء بمستوى متحف جاكمار أندريه. نظرت إليها في بادئ الأمر ساهماً، ثمّ أخذ قلبي يخفق بقوّة: كانت سيّارة كارتو. عرفتها لأنّها كانت من طراز إنكليزيّ قلّما نراه في فرنسا. خرج من السيّارة والتفّ ليفتح الباب الأيسر لراكب معه: كانت تلك هي جاكلين. كان بإمكانهما رؤيتي خلف زجاج رصيف المقهى وهما يسيران نحو باب المبنى، لكنّني لم أبارح طاولتي. بل كنت أحدّق بهما من غير أن أحوّل عينيّ، وكأنّني أتقصّد لفت انتباههما.

عبرا من غير أن يلاحظا وجودي. دفع كارتو الباب ليدع جاكلين تمرّ. كان يرتدي معطفاً كحليّاً، وجاكلين تضع سترتها الجلديّة الخفيفة. أخذْتُ فيشة للهاتف من صاحب المقهى. كانت المقصورة في الطابق تحت الأرض. طلبت رقم فاغرام 1318. رفع أحدهم السمّاعة.

– حضرتك بيار كارتو؟

Twitter: @ketab_n

- من يتكلّم؟
- هل يمكنني التحدّث إلى جاكلين؟
ثوانٍ من الصمت. ثمّ أقفلْتُ الخطّ.

Twitter: @ketab_n

وجدتُهما هي وفان بيفر عصرَ اليوم التالي في مقهى دانتي. كانا وحيدين في عمق الصالة، أمام آلة الفليبّر. لم يتوقّفا عن اللعب عند وصولي. كانت جاكلين ترتدي سروالها الأسود الضيّق عند الكاحلين وتنتعل حذاءً قطنيّاً أحمر برباط. لم يكن حذاءً مناسباً للشتاء.

اغتنمْتُ لحظة غاب فيها فان بيفر لجلب سجائر فبقينا أنا وجاكلين وحيدين وجهاً لوجه، لأسألها هي:

- ماذا عن كارتو؟ هل جرت الأمور على ما يرام بالأمس في جادّة أوسمان؟

امتقع وجهها.

- لماذا تطرح عليّ هذا السؤال؟

- رأيتك تدخلين معه إلى المبنى.

Twitter: @ketab_n

كنت أجاهد لأبتسم وأتكلّم بخفّة.

- هل كنت تتبعني؟

كانت تحملق بي. وفي اللحظة التي عاد فيها فان بيفر لينضمّ إلينا، انحنت صوبي وقالت لي خافضة صوتها:

- هذه المسألة تبقى بيننا.

فكّرت في قارورة الأثير - هذه القذارة، كما قالت - التي تنشّقناها معاً الليلة الماضية.

- تبدو مهموماً...

كان فان بيفر واقفاً أمامي وربّت على كتفي، كأنّما لانتزاعي من حلم مزعج. كان يمدّ لي علبة سجائر.

- هل نلعب شوط فليبر جديداً؟ سألَته جاكلين.

لكأنّها تسعى لإبعاده عنّي.

- ليس في الحال. اللعب يتسبّب لي بالصّداع.

أنا أيضاً. كنت أسمع أصوات الفليبّر حتّى بعدما أغادر مقهى دانتي.

سألْتُ فان بيفر:

- هل اتّصل بك كارتو؟

قطّبت جاكلين، لتفهمني على الأرجح أنّه يجدر بي عدم

Twitter: @ketab_n

إثارة هذا الموضوع.

– لماذا؟ هل أنت مهتمّ به؟

طرح السؤال عليّ بجفاء. بدا وقد فوجئ لحفظي اسم كارتو.

– هل هو جرّاح أسنان جيّد؟ سألتُ.

كنت أذكر البذلة الرماديّة والصوت الرصين المميّز اللذين لا يخلوان من بعض الأناقة.

– لا أدري، أجاب فان بيفر.

تظاهرت جاكلين بأنّها لا تسمع الحديث. كانت تنظر إلى مكان آخر، صوب مدخل المقهى. أمّا فان بيفر، فكان يبتسم ابتسامة متشنّجة بعض الشيء.

– إنّه يعمل نصف الوقت في باريس، تابعَ.

– وعدا ذلك، أين يعمل؟

– في الأرياف.

في الليلة السابقة كان ارتباك يخيّم بينهما وبين كارتو في مقهى شارع كوجاس، ولم يتبدّد هذا الارتباك بالرغم من الحديث العاديّ الذي تبادلناه حين جلسْتُ إلى طاولتهم. وها أنّني ألمس ذلك الحرج ذاته من جديد في صمت

Twitter: @ketab_n

جاكلين وأجوبة فان بيفر المبهمة.

– المشكلة مع هذا الشخص هي أنّه لَزِق قليلاً، قالت جاكلين.

بدا الانفراج على بيفر لمبادرتها إلى البوح لي بذلك، وكأنّه، اعتباراً من ذلك الحين، لم يعد لديهما ما يخفيانه عليّ.

– ليس لدينا رغبة خاصّة في رؤيته، تابع. هو الذي يأتي بحثاً عن رفقتنا...

أجل، هذا ما قاله كارتو فعلاً الليلة الماضية. تعرّفا عليه قبل شهرين في كازينو لانغرون. كان يلعب وحيداً على العجلة الصغيرة، ساهماً، لتمضية الوقت. دعاهما إلى العشاء في المطعم الوحيد الذي كان لا يزال مفتوحاً، على مسافة قصيرة من هناك، في لوك سور مير، وشرح لهما أنّه طبيب أسنان في المنطقة. في الهافر.

– وتعتقد أنّ هذا صحيح؟ سألتُ.

بدا فان بيفر متعجّباً لإمكانيّة أن أشكّك في مهنة كارتو ذاك. طبيب أسنان في الهافر. ذهبت مراراً إلى تلك المدينة قبل زمن بعيد لأستقلّ السفينة إلى إنكلترا، وتسكّعت في جوار الأرصفة. حاولتُ أن أتذكّر الوصول إلى

Twitter: @ketab_n

المحطّة والطريق إلى المرفأ. مبانٍ إسمنتيّة ضخمة، كلّها متشابهة، على طول جادّات عريضة شاسعة. المباني الهائلة والساحات بعثت فيّ إحساساً بالفراغ. وبات يترتّب عليّ تصوّر كارتو وسط هذا الديكور.

– أعطانا حتّى عنوانه في الهافر، قال فان بيفر.

لم أجرؤ على الاستعلام منه أمام جاكلين إن كان يعرف أيضاً عنوانه الآخر في باريس، في جادّة أوسمان. لاحت فجأةً سخرية في عينيها، وكأنّها ترى أنّ فان بيفر يبسّط الأمور ويجعلها أقلّ غموضاً بكثير ممّا هي في الواقع: مجرّد رجل التقيا به في منتجع ساحليّ في النورماندي، هو طبيب أسنان في الهافر، مسألة سخيفة للغاية إجمالاً، هذا كلّ ما في الأمر. أذكر أنّني كنت أنتظر دائماً للصعود على متن السفينة، جالساً في مقهى على الأرصفة: «لا بورت أوسيان»... هل كان كارتو يرتاد ذلك المكان؟ وهل كان يرتدي هناك البذلة الرماديّة ذاتها؟ غداً أشتري خريطة للهافر، وحين أختلي بجاكلين، سوف تشرح لي كلّ شيء.

– ظننّا أنّه سيفقد أثرنا في باريس، لكنّنا التقينا به من جديد قبل ثلاثة أسابيع...

Twitter: @ketab_n

كان فان بيفر يحني ظهره أكثر، ورأسه يغور بين كتفيه، وكأنّه يتأهّب للقفز فوق حاجز.

- هل التقيتما به في الشارع؟ سألت.

- أجل، ردّت جاكلين. قابلته بالصدفة. كان ينتظر سيّارة أجرة في ساحة شاتليه. أعطيته عنوان فندقنا.

بدت فجأةً محبطة لمواصلة الحديث حول ذلك الموضوع.

- أمّا الآن إذ هو يقضي نصف وقته في باريس، تابع فان بيفر، فهو يريد أن يلاقينا. لا يمكننا أن نرفض...

عصرَ اليوم السابق، خرجت جاكلين من السيّارة بعدما فتح لها كارتو الباب، ودخلت خلفه المبنى في جادّة أوسمان. راقبتهما جيّداً كليهما. لم يكن وجه جاكلين يعكس أدنى امتعاض.

- هل أنّتما ملزمان حقّاً بمقابلته؟

- إلى حدّ ما، قال فان بيفر.

ابتسم لي. ثمّ تردّد لحظة قبل أن يضيف:

- بوسعك أن تسدي لنا خدمة... وهي أن تلازمنا كلّما جاء هذا الرجل بحثاً عنّا...

Twitter: @ketab_n

- وجودك سيسهّل علينا الأمور، قالت جاكلين. هل يزعجك ذلك؟

- قطعاً لا. بكلّ سرور.

كنت سأفعل أيّ شيء من أجلها.

Twitter: @ketab_n

السبت، غادر فان بيفر إلى فورج ليزو. كنت أنتظرهما قرابة الساعة الخامسة عصراً أمام فندقهما، مثلما طلبا منّي أن أفعل. خرج فان بيفر أوّلاً. عرض عليّ القيام ببضع خطوات على طول رصيف لا تورنيل.

- أعتمد عليك للسهر على جاكلين.

فوجئت بكلامه. شرح لي بشكل مرتبك قليلاً أنّ كارتو اتّصل بهما في اليوم السابق ليقول لهما إنّه لا يمكنه مرافقته بالسيّارة إلى فورج ليزو لأنّ لديه عملاً ينبغي إنجازه. لكن من الأفضل عدم الوثوق بهذا الكلام اللبق ظاهريّاً، ولا بهذه المودّة الزائفة. كلّ ما كان كارتو يريده هو بكلّ بساطة أن يغتنم غيابه هو، فان بيفر، حتّى يرى جاكلين.

في هذه الحالة، لماذا لا يصطحبها معه إلى فورج ليزو؟

Twitter: @ketab_n

أجابني أنّه لو فعل، لَذهب كارتو لملاقاتها هناك، فلا فرق إذَن.

خرجَتْ جاكلين في تلك اللحظة من الفندق وانضمّت إلينا.

- إنّني واثقة من أنّكما كنتما تتكلّمان عن كارتو، قالت.

كانت تتفرّس في وجهينا، منقّلةً النظر بيننا.

- طلبْتُ منه أن يبقى معك، قال فان بيفر.

- هذا لطيف.

رافقناه كما في المرّة السابقة إلى محطّة بون ماري للمترو. بقي كلاهما صامتاً. أمّا أنا، فلم أعد أرغب في طرح أيّ أسئلة. استسلمت لاستهتاري الفطريّ. المهمّ كان أن أبقى وحيداً مع جاكلين. وقد حصلت حتّى على إذن فان بيفر الذي عهد إليّ بمهمّة حمايتها. ماذا يمكنني أن أتمنّى أكثر؟

قبل أن ينزل أدراج المترو، قال لي:

- سأحاول أن أعود غداً صباحاً.

عندما وصل إلى أسفل الأدراج، بقي لحظة مسمّراً بلا حراك، مستقيماً في معطفه المنقّش بالتعاريج. كان يحدّق في جاكلين.

Twitter: @ketab_n

– إن أردتِ الاتّصال بي، لديك رقم كازينو فورج...
ارتسمت فجأة على ملامحه تعابير الإحباط والتعب.
دفع أحد الأبواب وانغلق المصراع خلفه.

كنّا نعبر جزيرة سان لوي في اتّجاه الضفّة اليسرى، وأمسكت جاكلين بذراعي.

– متى سنصادف كارتو؟

بدا أن سؤالي تسبّب لها بقليل من الإزعاج. لم تردّ.

كنت أتوقّع أن تفارقني أمام باب فندقها، لكنّها جعلتني أصعد إلى غرفتها.

كان الليل هبط. أشعلت المصباح على المنضدة الليليّة قرب سريرها.

كنت جالساً على الكرسي قرب المغسلة، وهي جالسة أرضاً، مسندة ظهرها إلى حافّة السرير، وقد ثنت ساقيها لصق صدرها ولفّت ذراعيها حولهما.

– لا بدّ لي من انتظار اتّصاله، قالت لي.

كانت تتكلّم عن كارتو. لكن ما الذي يلزمها بانتظار اتّصاله؟

Twitter: @ketab_n

– هل راقبْتَني أمس في جادّة أوسمان؟

– أجل.

أشعلَتْ سيجارة. ومنذ المجّة الأولى، أخذَتْ تسعل. نهضْتُ عن الكرسيّ وجلست أرضاً بجانبها. كنّا نستند إلى حافّة السرير.

تناولْتُ السيجارة من يدها. لم تكن تحتمل الدخان، ووددت لو تتوقّف عن السعال.

– لم أشأ أن نتكلّم عن الموضوع أمام جيرار... كان سيشعر بالحرج تجاهك... لكنّني أردت أن أوضح لك أنّه على علم بكلّ شيء...

كانت تحدّق في عينيّ بنظرة تحدٍّ:

– لا يسعني غير ذلك في الوقت الحاضر... إنّنا بحاجة إلى هذا الرجل...

كنت على وشك أن أطرح عليها سؤالاً، لكنّها مدّت ذراعها إلى المنضدة الليليّة وأطفأت المصباح. أحسست بشفتيها تلامسان عنقي.

– ألا ترغب في أن نفكّر الآن في أمور أخرى؟

كانت على حقّ. لا أحد يدري أيّ هموم يخفيها لنا المستقبل.

Twitter: @ketab_n

قرابة الساعة السابعة مساء، دقّ أحدهم الباب وقال بصوت أجشّ:

- اتّصال هاتفيّ لكِ.

نهضَتْ جاكلين من السرير، ارتدت معطفي الواقي من المطر على عجل من غير أن تشعل الضوء، وخرجت من الغرفة تاركةً الباب مواربا.

كان الهاتف مثبّتاً إلى جدار الممشى. سمعتها تجيب بنعم ولا وتردّد:

- ليس من الضروريّ حقّاً أن آتي هذا المساء!

قالتها وكأنّ محاورها لا يفهم كلامها أو أنّها تريده أن يرجوها.

أغلقَت الباب وجلسَتْ على السرير. كان مظهرها غريباً في ذلك المعطف الواقي من المطر الفضفاض عليها والذي شمّرت كمّيه.

- إنّني على موعد معه بعد نصف ساعة... سيأتي لاصطحابي... يعتقد أنّني وحيدة هنا...

اقتربَتْ منّي وقالت لي خافضةً صوتها:

Twitter: @ketab_n

- أنا بحاجة إلى خدمة منك...

سوف يأخذها كارتو لتناول العشاء مع أصدقاء له. وبعد ذلك، لم تكن تعرف تماماً كيف ستنتهي السهرة. الخدمة التي كانت تريدها منّي كانت هي التالية: أن أغادر الفندق قبل وصول كارتو. وسوف تعهد إليّ بمفتاح، هو مفتاح الشقّة في جادّة أوسمان. سوف أذهب إلى هناك لجلب حقيبة موضوعة في إحدى خزائن عيادة طبّ الأسنان، «الخزانة من صوب النافذة». عليّ أن آخذ الحقيبة وأجلبها إلى هنا، في هذه الغرفة. هذا كلّ ما في الأمر، المسألة بسيطة. سوف تتّصل بي في الساعة العاشرة لتقول لي أين يمكنني ملاقاتها.

ما الذي تحتوي عليه تلك الحقيبة؟ ابتسمت ابتسامة مرتكبة وقالت: «بعض المال». لم يدهشني الأمر كثيراً. وما سيكون ردّ فعل كارتو حين لا يجدها؟ حسناً، لا يمكن أن تساوره أيّ شكوك على الإطلاق بأنّنا نحن من يقف خلف السرقة. بالطبع، لم يكن على علم بأنّ لدينا نسخة عن مفتاح الشقّة. فهي نَسَخَتْها من غير أن يدري في محلّ صبّ المفاتيح السريع في محطّة سان لازار.

Twitter: @ketab_n

كان لاستخدامها صيغة «نحن» وقعٌ شديد في نفسي، إذ كانت تتكلّم عنّا أنا وهي. أردت رغم ذلك أن أعرف إن كان فان بيفر على علم بهذه الخطّة. أجل، لكنّه فضّل أن تقوم هي بإطلاعي عليها. لم أكن ألعب إذَن سوى دور ثانويّ، وما كانا ينتظرانه منّي هو أن أقوم بما يشبه عمليّة سلب. ولتبديد تحفّظاتي، أوضحَتْ لي أنّ كارتو لم يكن «شخصاً صالحاً»، وأنّه في مطلق الأحوال «يدين لها حتماً بذلك...»

– وهل تزن كثيراً، تلك الحقيبة؟ سألْتُها.

– لا.

– لأنّني لا أدري إن كان من الأفضل أن أستقلّ سيّارة أجرة أو المترو.

بدت مستغربة ألّا أبدي أيّ تمنّع.

– ألا يزعجك أن تقوم بذلك من أجلي؟

لا بدّ أنّها كانت تريد أن تضيف أنّني لا أواجه أيّ مخاطر، لكنّني لم أكن بحاجة إلى تشجيع. الواقع أنّني منذ طفولتي، رأيت والدي ينقل عدداً لا يُحصى من المتاع – حقائب سفر ذات قعر مزدوج، أكياس وحقائب

Twitter: @ketab_n

يد جلديّة، أو حتّى تلك المحفظات السوداء التي كانت تعطيه مظهراً محترَماً ولو أنّه زائف.... وكنت أجهل على الدوام ما يمكن أن تحتوي عليه.

– سأفعل ذلك بكلّ سرور، قلت لها.

ابتسمَت لي وشكرتني، مضيفةً أنّها آخر مرّة تعرض فيها عليّ القيام بمثل هذا العمل. شعرت ببعض الخيبة لأنّ فان بيفر كان على علم، لكن عدا ذلك، لم يكن الأمر يزعجني بتاتاً. كنت معتاداً على الحقائب.

أعطتني المفتاح على عتبة الباب وقبّلتني.

نزلت الأدراج مسرعاً وعبرت رصيف النهر حاثّاً الخطى في اتّجاه جسر لا تورنيل، على أمل ألّا ألتقي بكارتو.

كانت لا تزال ساعة الزحمة في المترو. شعرت بالارتياح هناك، محشوراً بين المسافرين الآخرين. لم يكن من الممكن أن ألفت الانتباه.

حين أعود مع الحقيبة، سوف أستقلّ المترو من جديد. هكذا قرّرت.

كنت أنتظر في محطّة هافْر كومارتان لأبدّل القطار

Twitter: @ketab_n

إلى محطّة ميروميل. كان أمامي متّسع من الوقت. لن تتّصل بي جاكلين في الفندق قبل الساعة العاشرة. تركت قطارين أو ثلاثة قطارات تعبر. لماذا أوكلت هذه المهمّة إليّ وليس إلى فان بيفر؟ وهل أخبرتْه حقّاً أنّني سأجلب تلك الحقيبة؟ لا يمكن معرفة أيّ شيء بشكل مؤكّد معها.

عند الخروج من المترو، شعرت ببعض التوجّس، لكنّه ما لبث أن تبدّد. كان المارّة الذين ألاقيهم نادرين، وشبابيك المباني كانت معتمة. مكاتب خلتْ للتوّ. أمام الرقم 160، نظرْتُ إلى الأعلى. وحدها نوافذ الطابق الرابع كانت مضاءة.

لم أشعل النور الآليّ في الأدراج. كان المصعد يرتقي ببطء، ونور المصباح الأصفر فوق رأسي يلقي على جدار السلالم ظلّ البوابة الحديديّة المشبّكة. تركت باب المصعد مفتوحاً قليلاً، ريثما أدسّ على ضوئه المفتاح في القفل.

كانت أبواب القاعات حول ردهة المدخل مشرّعة كلّها على مصراعيها، وكان نور أبيض ينسلّ منبعثاً من مصابيح الجادّة. دخلت عيادة طبيب الأسنان إلى اليسار. كان مقعد الزبائن في وسط القاعة، بظهره الجلديّ المحنيّ إلى الخلف،

Twitter: @ketab_n

يبدو أشبه بأريكة عالية يمكن تمديد الساقين عليها.

على ضوء مصباح الشارع، فتحت الخزانة الحديديّة، تلك الموضوعة من صوب النوافذ. كانت الحقيبة فعلاً هناك، على رفّ، مجرّد حقيبة من الصفيح، شبيهة بالحقائب التي يحملها الجنود حين يذهبون في إجازة.

أخذت الحقيبة وعدت إلى الردهة. في الجهة المقابلة لعيادة طبيب الأسنان، كان هناك قاعة انتظار. أشعلت الضوء وانبعث النور منسدلاً من ثريّا بلّوريّة. كان هناك كنبات من المخمل الأخضر. وعلى طاولة خفيضة، مجلّات مكدّسة. عبرت ذلك الصالون ودخلت غرفة صغيرة فيها سرير ضيّق، شراشفه مدعوكة. أشعلت المصباح على المنضدة الليليّة.

كانت سترة بذلة نوم مرميّة في كومة على الوسادة. في الخزانة، بذلتان رماديّتان معلّقتان بمشجبين، بلون البذلة التي كان كارتو يرتديها في شارع كوجاس وبتفصيلها ذاته. وعند أسفل النافذة، حذاءان بنيّان محشوّان بقالبين.

تلك كانت إذَن غرفة كارتو. في سلّة المهملات القصب، لفتت انتباهي علبة سجائر روايال، السجائر

Twitter: @ketab_n

التي تدخّنها جاكلين. لا بدّ أنّها رمت العلبة في ذلك المساء، حين جاءت معه إلى هنا.

فتحت تلقائيّاً جارور المنضدة الليليّة حيث وجدت مكدّسةً علب من الحبوب المنوّمة وأقراص الأسبرين، وبطاقات زيارة باسم بيار روب، جرّاح أسنان، 160 جادّة أوسمان، فاغرام 1318.

كانت الحقيبة مقفلة بالمفتاح، وتردّدت في خلع القفل. لم يكن وزنها ثقيلاً. لا بدّ أنّها كانت تحتوي على أوراق ماليّة. فتّشت جيوب البذلتين وعثرت في نهاية الأمر على محفظة سوداء، وفيها بطاقة هويّة صادرة قبل سنة باسم بيار كارتو، مواليد 15 يونيو 1923، في بوردو (جيروند)، العنوان: 160 جادّة أوسمان في باريس.

كان كارتو إذَن يقيم هناك منذ ما لا يقلّ عن سنة... وهو أيضاً عنوان المدعوّ بيار روب، جرّاح الأسنان. كانت الساعة متأخّرة جدّاً لا تسمح بطرح أسئلة على حارس المبنى، ولم يكن بوسعي أن أقصده حاملاً بيدي الحقيبة الصفيح.

جلست على حافّة السرير. كنت أشتمّ رائحة أثير غصّ

Twitter: @ketab_n

لها قلبي، لكأنّ جاكلين غادرت تلك الغرفة للتوّ.

قبل الخروج من المبنى، عدلت عن رأيي ودققت على باب حارسه المزجّج الذي كان يلوح خلفه ضوء. فتح لي رجل أسمر قصير القامة، مادّاً رأسه في الفتحة. كان يحدّق بي بريبة.

- أودّ مقابلة الدكتور روب، قلت له.

- الدكتور روب ليس في باريس حاليّاً.

- ألا تعلم أين يمكنني الاتّصال به؟

كان يبدي ريبة متزايدة، وهو يحدّق مليّاً في الحقيبة الصفيح التي كنت أحملها بيدي.

- أليس لديك عنوانه؟

- لا يمكنني إعطاؤك عنوانه سيّدي. لست أدري مَن حضرتك.

- أنا قريب للدكتور روب. أقوم بخدمتي العسكريّة وخرجت في إجازة لبضعة أيّام.

بدا وكأنّ هذا التفصيل طمأنه قليلاً حيالي.

- الدكتور روب في منزله في بيوست.

Twitter: @ketab_n

لم يبدُ لي هذا الاسم واضحاً، فطلبت منه أن يتهجّاه لي:
بيوست.
- عذراً، قلت له، لكنّني ظننت أنّ الدكتور روب لم يعد يسكن هنا. ثمّة اسم آخر على قائمة المستأجرين.
أشرت له إلى القائمة، وتحديداً إلى اسم كارتو.
- إنّه زميل للدكتور روب...
لمست الريبة مجدّداً على ملامحه. قال لي:
- إلى اللقاء سيّدي.
وأغلق الباب خلفه بحدّة.

حين خرجت من المبنى، قرّرت أن أمشي حتّى محطّة سان لازار. لم تكن الحقيبة ثقيلة على الإطلاق. كانت الجادّة مقفرة، وواجهات المباني مطفأة، وبين الحين والآخر تعبر سيّارة متّجهة إلى ساحة ليتوال[1]. ربّما ارتكبت خطأ حين دققت باب الحارس، لأنّه سيكون بوسعه الإبلاغ بمواصفاتي. لكنّني علّلت نفسي بأنّه لا يمكن لأيّ كان، لا كارتو، ولا الدكتور روب ذاك الأشبه بشبح، ولا

(1) ساحة النجمة.

Twitter: @ketab_n

حارس المبنى رقم 160، القيام بأيّ شيء حيالي. أجل، ما فعلته، الدخول إلى شقّة مجهولة وأخذ حقيبة ليست لي، وهو ما كان سينطوي بنظر سواي على قدر من الخطورة، ذلك كان بالنسبة لي عملاً لا تترتّب عليه أيّ تبعات.

لم أشأ العودة في الحال إلى رصيف لا تورنيل. صعدت أدراج محطّة القطارات ووصلت إلى الردهة العامّة[1]. كان الركّاب ما زالوا يتوجّهون بأعداد كبيرة إلى أرصفة قطارات الضواحي. جلست على مقعد، والحقيبة بين ساقيّ. أحسست شيئاً فشيئاً بأنّني أنا أيضاً مسافر أو جنديّ في إجازة. كانت محطّة سان لازار تفتح لي أفقاً للهروب أوسع من الضاحية ومنطقة النورماندي اللّتين كانت القطارات تتوجّه إليهما. لو أشتري تذكرة إلى الهافر، مدينة كارتو! وفي الهافر، أختفي في أيّ مكان، في أيّ نقطة

(1) Salle des pas-perdus حرفيّاً: «ردهة الخطى الضائعة» وهي ردهة فسيحة تؤدّي إلى مختلف المكاتب والقاعات في مبنى إداري أو أيّ مبنى عامّ، أو قاعة الانتظار أو المرور لجميع المسافرين في محطّة. يعود أصلها إلى القرن التاسع عشر حين كان نوّاب البرلمان في فرنسا يخضعون لتصويت الشعب لإعادة انتخابهم. وفي انتظار صدور النتائج، كانوا يبقون في قاعة مؤدّية للمجلس، يذرعونها ذهاباً وإياباً، فتكون خطواتهم ضائعة في حال عدم فوزهم.

Twitter: @ketab_n

من العالم الفسيح، عبر مقهى «لا بورت أوسيان»...

لماذا كانت ردهة المحطّة تلك تسمّى «ردهة الخطى الضائعة»؟ لا بدّ أنّه يكفي البقاء هناك لبعض الوقت، فلا يعود شيء يهمّ، ولا حتّى خطواتنا.

مشيت حتّى المطعم، في عمق القاعة. كان جنديّان في إجازة جالسين على رصيف المطعم، ومعهما حقيبة شبيهة بحقيبتي. كدت أطلب منهما مفتاح حقيبتهما الصغير لأحاول أن أفتح به تلك التي كنت أحملها. لكنّني خفت في حال فتحها أن تظهر رزم الأوراق الماليّة التي كانت تحويها بلا شكّ على مرأى من الزبائن الجالسين بجواري، وعلى الأخصّ واحد من أولئك المفتّشين باللباس المدنيّ الذين سمعت بهم: شرطة المحطّات. هاتان الكلمتان كانتا توحيان لي بجاكلين وفان بيفر، وكأنّهما جرّاني إلى مغامرة باتت تهدّد بجعلي فريسة لشرطة المطارات.

دخلت صالة المطعم واخترت إحدى الطاولات القريبة من الواجهات الزجاجيّة المطلّة على شارع أمستردام. لم أكن جائعاً. طلبت كوباً من شراب الرمّان. كنت أحتفظ بالحقيبة محشورة بين ساقيّ. على الطاولة

Twitter: @ketab_n

المجاورة، كان رجل وامرأة يتكلّمان بصوت منخفض. الرجل أسمر، ثلاثينيّ، بشرة وجهه مجدورة عند أعلى الوجنتين. لم يخلع معطفه الواقي من المطر. المرأة أيضاً سمراء، ترتدي معطفاً من الفرو. كانا ينهيان عشاءهما. المرأة تدخّن سجائر روايال، مثل جاكلين. كانت محفظة سوداء ضخمة وحقيبة جلديّة من اللون ذاته موضوعتين لصق المقعد الذي كانا جالسين عليه. تساءلت إن كانا وصلا للتوّ إلى باريس، أم يغادرانها. قالت المرأة بصوت أوضح:

– بوسعنا بكلّ بساطة الصعود في القطار المقبل.

– ما هو توقيته؟

– في الساعة العاشرة والربع...

– حسناً، أجاب الرجل.

كانا يتبادلان نظرة غريبة. العاشرة والربع. في حوالى تلك الساعة، كان يُفترَض أن تتّصل بي جاكلين في الغرفة على رصيف لا تورنيل.

سدّد الرجل الحساب ونهضا. حمل المحفظة السوداء والحقيبة. عبرا أمام طاولتي من غير أن يعيراني أيّ اهتمام.

Twitter: @ketab_n

انحنى النادل صوبي:

- هل يمكنني أخذ طلبك سيّدي؟

كان يشير لي إلى القائمة.

- هذا القسم من المقهى مخصّص للطعام... لا يمكنني أن أقدّم لك مشروباً فقط...

- إنّني أنتظر شخصاً، أجبته.

رأيت فجأةً عبر الواجهة الزجاجيّة الرجل والمرأة على رصيف شارع أمستردام. كانت تمسك بذراعه. دخلا إلى فندق، على مسافة قصيرة عند أسفل الطريق.

وقف النادل من جديد أمام طاولتي:

- يجب أن تقرّر سيّدي... إنّني على وشك إنهاء خدمتي...

نظرت إلى ساعتي. الوقت الثامنة والربع. فضّلت البقاء هناك على أن أهيم في الخارج في البرد، فطلبت الوجبة المعروضة. كانت ساعة الزحمة قد انقضت والجميع استقلّوا قطارات الضواحي.

عند الأسفل، في شارع أمستردام، كان هناك حشد خلف واجهات المقهى الأخير قبل ساحة بودابست.

Twitter: @ketab_n

الضوء فيه أكثر اصفراراً وعكراً من الضوء في مقهى دانتي. لطالما تساءلت عمّا يحمل يجعل هذا العدد من الأشخاص يقصدون جوار محطّة سان لازار ليتيهوا فيه، إلى أن علمت ذات يوم أن تلك المنطقة هي من الأكثر انخفاضاً في باريس. ننزلق فيها على منحدر خفيف الانحناء. الرجل والمرأة قبل قليل لم يقاوما هذا المنحدر. فوّتا ساعة القطار ليلجآ إلى غرفة ستائرها سوداء، كما في فندق ليما، غير أنّ ورق الجدران فيها أكثر اتّساخاً وشراشف السرير دعكها النزلاء الذين سبقوهما. لن تخلع حتّى معطفها الفرو على السرير.

انتهيت من تناول العشاء. وضعت الحقيبة على المقعد بجانبي وأخذت السكّين، محاولاً إدخال طرفها في القفل، لكنّ القفل كان صغيراً للغاية. كان مثبّتاً بمسامير بوسعي اقتلاعها بواسطة كلّابة، لكن ما الجدوى؟ سوف أنتظر حتّى أصبح مع جاكلين في الغرفة، على رصيف لا تورنيل.

بوسعي أيضاً أن أرحل وحيداً من غير أن أعود أتّصل بهما، هي وفان بيفر. ذكرياتي الطيّبة الوحيدة حتّى الآن هي

Twitter: @ketab_n

ذكريات هروب.

شعرتُ بالرغبة في تقطيع ورقة إلى مربّعات صغيرة. وعلى كلّ من المربّعات، كنت سأكتب اسماً ومكاناً:

جاكلين
فان بيفر
كارتو
الدكتور روب
160 جادّة أوسمان، الطابق الثاني
فندق لا تورنيل، 65 رصيف لا تورنيل
فندق ليما، 46 جادّة سان جرمان
مقهى كوجاس، 22 شارع كوجاس
مقهى دانتي
فورج ليزو، ديب، بانيول دو لورن
أنغان، لوك سور مير، لانغرون
الهافر
أتيس مونس

كنت سأخلط القصاصات مثل لعبة ورق وأنثرها على الطاولة. أهذه هي إذَن حياتي الحاليّة؟ هل أنّ الحياة برمّتها تقتصر بالنسبة لي في الوقت الحاضر على حوالى عشرين

Twitter: @ketab_n

اسماً مختلفاً وعنواناً متفرّقاً لم أكن أنا سوى الرابط الوحيد بينها؟ ولماذا هذه الأسماء والعناوين وليس سواها؟ ما كان القاسم المشترك بيني وبين هذه الأسماء والأماكن؟ كنت في حلم فيه ندرك أنّه يمكننا أن نستيقظ في أيّ لحظة، حين تهدّدنا أخطار. بوسعي، إن قرّرت، أن أنهض عن هذه الطاولة، وسوف ينحلّ كلّ شيء ويتبدّد في العدم. ولن يبقى سوى حقيبة من الصفيح وبضع قصاصات من الورق خربشَتْ يدٌ عليها أسماء أشخاص وأماكن لن يعود لها أيّ معنى بنظر أيٍّ كان.

عبرت من جديدٍ الردهة العامّة شبه المقفرة، متوجّهاً إلى أرصفة القطارات. بحثت على لوحة الرحلات عن وجهة قطار الساعة العاشرة والربع الذي كان يجدر بالرجل والمرأة أن يصعدا فيه قبل قليل: الهافر. خُيّل لي أنّ تلك القطارات لا تقود إلى مكان، وأنّ قدَرنا أن نهيم بين المقهى و«ردهة الخطى الضائعة»، ومن الردهة إلى قسم التسوّق وشوارع الجوار. ما زال لديّ ساعة عليّ أن أقضيها. توقّفت أمام حجرة هاتف بالقرب من خطوط

Twitter: @ketab_n

قطارات الضواحي. هل أعود إلى الرقم 160 من جادّة أوسمان لأعيد الحقيبة إلى مكانها؟ هكذا، تعود الأمور إلى مجاريها ولن يبقى هناك أيّ مأخذ عليّ. استشرت الدليل في حجرة الهاتف، لأنّني كنت نسيت رقم الدكتور روب. رنّ الهاتف المرّة تلو الأخرى. لم يكن أحد في الشقّة. هل أتّصل بالدكتور روب ذاك في بيوست وأعترف له بكلّ شيء؟ وجاكلين وكارتو، أين يمكن أن يكونا في تلك اللحظة؟ أقفلت الخطّ. كنت أفضّل الاحتفاظ بالحقيبة وحملها إلى جاكلين، فهي الوسيلة الوحيدة للإبقاء على خيط تواصل معها.

رحت أقلّب صفحات الدليل، وشوارع باريس تتعاقب أمام عينيّ مع أرقام المباني وأسماء قاطنيها. وقعت بالصدفة على: سان لازار (المحطّة)، وفوجئت بوجود أسماء تحت هذا العنوان أيضاً:

شرطة القطارات	42 28
عربات النوم	46 44
مقهى روما	30 48

Twitter: @ketab_n

فندق تيرمينوس	80 36
تعاونيّة الحمّالين	77 58
غابريال دوبري، أزهار،	
الردهة العامّة	47 02
قسم المتاجر:	
1 برنوا	66 45
5 بيديلو وديلي، السيّدتان	48 42
أحذية جيو	63 44
سينياك	74 80
19 بورجوا (رينيه)	02 35
25 ستوب للبريد الخاصّ	96 45
25 مكرّر، نونو نانيت	62 42
27 الديسكوبول (مقهى)	43 41

أترى مِنَ الممكن التواصل مع هؤلاء الأشخاص؟ في تلك الساعة تحديداً، هل كانت رينيه بورجوا في مكان ما من المحطّة؟ لم أميّز من خلف زجاج إحدى قاعات الانتظار سوى رجل يرتدي معطفاً قديماً بنيّاً واقياً من المطر، ينام مرتمياً على أحد المقاعد، ومن جيب معطفه يظهر طرف صحيفة. أتراه برنوا؟

Twitter: @ketab_n

صعدتُ عبر الأدراج الضخمة إلى قسم المتاجر. المحلّات جميعها مغلقة. كنت أسمع هدير محرّكات الديزل لسيّارات الأجرة المتوقّفة في الصفّ في ساحة أمستردام. كان نور حادّ يضيء باحة المتاجر، وخشيتُ فجأةً أن أصادف أحد مفتّشي «شرطة القطارات»، بحسب ما هو مدوّن في دليل الهاتف. سوف يطلب منّي أن أفتح الحقيبة وسيترتّب عليّ الفرار. غير أنّه سيلحق بي بسهولة ويجرّني إلى مركز الشرطة في المحطّة. ذلك سيكون غاية في الحماقة.

دخلت صالة سينياك ودفعت فرنكين ونصف فرنك، سعر التذكرة، على الصندوق. أرادت البوّابة الشقراء القصيرة الشّعر عند مدخل الصالة أن ترشدني بواسطة مصباح جيب تحمله إلى الصفوف الأماميّة، لكنّني فضّلت الجلوس في عمق الصالة. كانت مشاهد الأخبار تتعاقب والمذيع يعلّق عليها بصوت حادّ زاعق أعرفه جيّداً، الصوت ذاته الذي أسمعه منذ أكثر من خمس وعشرين سنة. سمعت ذلك الصوت نفسه العام الماضي في سينما بونابرت أثناء عرض مونتاج لأحداث قديمة.

وضعت الحقيبة على المقعد إلى يميني. عددت أمامي

Twitter: @ketab_n

سبعة خيالات متفرّقة. سبعة أشخاص وحيدين. كانت رائحة أوزون فاترة منتشرة في الصالة، الرائحة ذاتها التي تطبق على رئتينا حين نعبر فوق مشبّك قطارات المترو. كنت لا أعير كبيرَ اهتمام لمشاهد أحداث الأسبوع. تلك المشاهد سوف تعود وتتكرّر من جديد كلّ ربع ساعة على الشاشة، مشاهد خارج الزمن والواقع، على غرار ذلك الصوت الحادّ الذي كنت أتساءل إن لم يكن يخرج من حنجرة اصطناعيّة.

كانت الأحداث تتعاقب للمرّة الثالثة، ونظرت إلى ساعتي. كانت التاسعة والنصف. لم يبقَ أمامي سوى خيالَين. لا بدّ أنّهما ناما. كانت البوّابة جالسة في مقعد قابل للطيّ لصق الجدار الخلفيّ، قرب المدخل. سمعت صفقة المقعد. جال ضوء مصباح جيبها على صفّ المقاعد حيث كنت جالساً، إنّما في الجهة الأخرى من الممرّ في وسط القاعة. كانت ترشد شاباً يرتدي بذلة عسكريّة. ثمّ أطفأت مصباحها وجلس الاثنان. وردتني بضع كلمات من حديثهما. كان يتحتّم عليه هو أيضاً الصعود في قطار الهافر. سوف يحاول العودة إلى باريس بعد حوالى

Twitter: @ketab_n

خمسة عشر يوماً. سوف يتّصل بها ليعلمها بتاريخ عودته بالضبط. كانا قريبين منّي. لم يكن يفصل بيننا سوى الممرّ. كانا يتكلّمان بصوت عالٍ، وكأنّهما غير متنبّهين لوجودي ولوجود الخيالَين الغافيَين أمامنا. ثمّ صمتا. كانا ملتصقين أحدهما بالآخر ويتبادلان القبلات. الصوت الحادّ لا يزال يعلّق على المشاهد المتعاقبة على الشاشة: مسيرة مُضربين عن العمل، موكب رجل دولة أجنبيّ يعبر باريس، عمليّات قصف... وددت لو ينطفئ ذلك الصوت نهائيّاً. اعترتني قشعريرة لفكرة أنّه سيستمرّ على ما هو، معلّقاً على الكوارث القادمة دون أدنى تعاطف. كانت البوّابة تعتلي ساقي صديقها وتهتزّ فوقه في حركة متقطّعة وسط أزيز نوابض الكرسي. وبعد وقت قصير تصاعدت تنهّداتها وتأوّهاتها إلى أن طغت على صوت المذيع الهزيل.

في ساحة كور دو روم، فتّشت في جيبي بحثاً عمّا يكفي من نقود. عشرة فرنكات. بوسعي أن أستقلّ سيّارة أجرة. هكذا أصل بأسرع من المترو، إذ سيتحتّم عليّ لو ركبتُه أن أبدّل القطار في محطّة الأوبرا وأن أحمل الحقيبة عبر الممرّات.

Twitter: @ketab_n

همّ السائق بوضع الحقيبة في الصندوق، لكنّني فضّلت الاحتفاظ بها معي. انحدرنا في جادّة الأوبرا وتبعنا أرصفة النهر. كانت باريس مقفرة في تلك الليلة، مثل مدينة أغادرها إلى الأبد. عند رصيف لا تورنيل، خشيت فجأة أن أكون أضعت مفتاح الغرفة، لكنّه كان فعلاً في أحد جيوب معطفي الواقي من المطر.

عبرت أمام مكتب الاستقبال الصغير، وسألت الرجل الذي كان يبقى عادةً هناك حتّى منتصف الليل، إن كان أحدهم اتّصل طالباً الغرفة رقم ثلاثة، فأجابني بالنفي. لكنّ الساعة كانت لا تزال العاشرة إلّا عشر دقائق.

صعدت الأدراج من غير أن يطرح عليّ أيّ سؤال. ربّما لم يكن يميّز على الإطلاق بيني وبين فان بيفر. أو أنّه لم يعد يودّ الاكتراث لأيّ من تحرّكات النزلاء ذهاباً وإياباً في فندق محكوم عليه بالإغلاق قريباً.

تركت باب الغرفة مواربا لأسمعه جيّداً حين يندهني لتلقّي الاتّصال. وضعت الحقيبة أرضاً على عرضها وتمدّدت على سرير جاكلين. كانت رائحة الأثير تفوح قويّة من الوسادة. هل تنشّقَتْه من جديد؟ هل ستظلّ تلك

Twitter: @ketab_n

الرائحة فيما بعد مرتبطة على الدوام في ذهني بجاكلين؟

اعتباراً من الساعة العاشرة، تملّكني القلق. خطر لي أنّها لن تتّصل وأنّني لن أراها من جديد. غالباً ما كنت أتوقّع من الناس الذين أتعرّف عليهم أن يختفوا في أيّ لحظة ولا تعود تردني إشارة منهم على الإطلاق. أنا أيضاً كنت أحدّد أحياناً مواعيد لا أفي بها أنا نفسي، أو حتّى أغتنم لحظة غفلة وأنا أمشي مع شخص في الشارع لأفارقه. ثمّة بوّابة مبنى في ساحة سان ميشال قدّمت لي في أغلب الأحيان مساعدة ثمينة بهذا الصدد. حين نجتازها، ندخل باحة داخليّة تفضي إلى شارع ليروندیل. كما أنّني دوّنت في مفكّرة صغيرة سوداء قائمة بجميع المباني ذات منفذين...

سمعت صوت الرجل في السلالم: اتّصال هاتفيّ للغرفة رقم ثلاثة. كانت الساعة العاشرة والربع، وقد فقدْتُ الأمل في أن تتّصل. غير أنّها تمكّنَت من التخلّص من كارتو. كانت في الدائرة السابعة عشرة. سألتني إن كنت نجحت في إحضار الحقيبة. قالت لي أن أجمع ملابسها في حقيبة سفر وأن أجلب أمتعتي أنا أيضاً من فندق ليما، ثمّ أن أنتظرها في مقهى دانتي. لكن لا بدّ لي

Twitter: @ketab_n

من مغادرة رصيف لا تورنيل بأسرع ما يمكن، لأنّه أوّل مكان سيقصده كارتو. كلّمتني بصوت هادئ جدّاً، وكأنّها أعدّت كلّ ذلك مسبقاً، في رأسها. أخرجْتُ حقيبة سفر قديمة من الخزانة وحشرت فيها البنطالين والسترة الجلدية والصّدارات والأحذية القطنية الحمراء والكنزة العالية الياقة والمساحيق واللوازم الشخصيّة القليلة المصفوفة على رفّ المغسلة، وبينها قارورة الأثير. لم يبقَ هناك سوى ملابس فان بيفر. لم أطفئ الضوء، حتّى يظنّ البوّاب أنّه لا يزال هناك شخصٌ في الغرفة، وأغلقت الباب خلفي. في أيّ ساعة سيعود فان بيفر؟ بوسعه ملاقاتنا في مقهى دانتي. هل اتّصلَت به في فورج أو دييب، وقالت له الشيء ذاته الذي قالته لي؟

نزلت الأدراج دون أن أشعل الضوء. كنت أخشى أن ألفت انتباه البوّاب، حاملاً حقيبة السفر تلك والحقيبة الصفيح. كان منحنياً فوق صحيفة، وكأنّه منشغل بحلّ كلمات متقاطعة. لم يسعني العبور من غير أن ألقي نظرة عليه في طريقي، لكنّه لم يرفع رأسه حتّى. على رصيف لا تورنيل، كنت أخشى أن أسمعه يصيح من خلفي:

Twitter: @ketab_n

«سيّدي، سيّدي... عد في الحال أرجوك...»، وكنت أتوقّع أيضاً أن تظهر سيّارة كارتو وتتوقّف إلى جانبي. لكن مع وصولي إلى شارع بيرناردان، استعدت هدوئي. صعدت مسرعاً إلى غرفتي، ووضعت ملابسي القليلة والكتابين المتبقّيين لي في حقيبة جاكلين.

ثمّ نزلت وطلبت فاتورة الغرفة. لم يطرح عليّ الحارس الليليّ أيّ سؤال. في الخارج، في جادّة سان جرمان، شعرت بالجذل الذي يتملّكني عادةً كلّما هربت.

Twitter: @ketab_n

جلستُ إلى الطاولة في عمق الصالة ووضعت الحقيبة مسطّحةً على عرضها فوق المقعد. لم يكن هناك أحد. مجرّد زبون واحد متّكئ إلى منضدة الشّرب. هناك، على الجدار، فوق صفوف علب السجائر، كانت عقارب الساعة تشير إلى العاشرة والنصف. بجانبي، كانت آلة الفليبّر صامتة لأوّل مرّة. كنت واثقاً من أنّها ستحضر في الموعد.

دخلَتْ، لكنّها لم تبحث عنّي على الفور بنظرها. توجّهت إلى المنضدة لشراء سجائر. وبعد ذلك، جلست على المقعد. لاحظت الحقيبة، ثمّ اتّكأتْ بمرفقيها على الطاولة وتنهّدت مطوّلاً.

- نجحتُ في التخلّص منه، قالت لي.

تناولا العشاء، هي وكارتو، مع رجل وامرأة أخريين،

Twitter: @ketab_n

في مطعم قريب من ساحة بيرير. كانت تريد الفرار عند انتهاء العشاء، لكنّه كان بوسعهم رؤيتها من سطيحة المطعم، وهي تمشي نحو موقف سيّارات الأجرة أو محطّة المترو.

خرجوا من المطعم واضطرّت إلى الصعود في السيّارة معهم. اصطحبوها مرغمةً على مقربة من هناك، إلى حانة فندق يدعى فندق لي مارونييه، لتناول كأس أخيرة. هناك، في فندق لي مارونييه، هربت منهم. وعندما باتت حرّة طليقة، اتّصلت بي من مقهى في جادّة كورسيل.

أشعلَتْ سيجارة وأخذت تسعل. وضعت يدها على يدي، مثلما رأيتها تفعل مع فان بيفر في شارع كوجاس. وكانت لا تزال تسعل، ذلك السعال البغيض.

انتزعْتُ السيجارة من يدها وأطفأتها في المنفضة. قالت لي:

– علينا أن نغادر باريس، كلانا... هل أنت موافق؟

بالطبع كنت موافقاً.

– أين تودّين الذهاب؟ سألتها.

– إلى أيّ مكان.

Twitter: @ketab_n

كانت محطّة غار دو ليون على مقربة. يكفي أن نتبع رصيف النهر حتّى حديقة النباتات، وأن نعبر السين. كلانا بلغ القعر، وحان الوقت لننتفض ونطفو من جديد إلى السطح. هناك، في فندق لي مارونييه، لا بدّ أنّ كارتو بدأ يقلق لغياب جاكلين. وفان بيفر لا يزال ربّما في دييب أو فورج.

– وجيرار، ألن ننتظره؟ سألتها.

هزّت رأسها نافية، وتشنّجت ملامحها. كانت على وشك أن تنهار بالبكاء. فهمت أنّها إن كانت ترغب في أن نرحل معاً، فذلك لتطوي صفحة من حياتها. أنا أيضاً سوف أطرح خلفي السنوات الكئيبة المشوّشة التي عشتها حتّى ذلك الحين.

كدت أقول لها من جديد إنّه ربّما يجدر بنا انتظار جيرار. لكنّني لزمت الصمت. ثمّة خيالٌ يرتدي معطفاً منقّشاً بالتعاريج، سيبقى مسمّراً إلى الأبد في شتاء تلك السنة. سوف تعاودني ذكرى كلمات «الأرقام الخمسة حول الصفر». وكذلك ذكرى رجل أسمر في بذلة رماديّة لم ألتقِ به إلّا لماماً، ولم أعرف بيقينٍ إن كان طبيب أسنان أم لا.

Twitter: @ketab_n

ووجها والديّ بملامحهما التي تزداد غموضاً.

أخرجْتُ من جيب معطفي الواقي من المطر مفتاح الشقّة في جادّة أوسمان الذي كانت عهدت به إليّ، ووضعْتُه على الطاولة.

- ماذا نفعل به؟

- نحتفظ به ذكرى.

لا أحد عند منضدة الشّرب. كنت أسمع أزيز أضواء النيون وسط الصمت المخيّم حولنا. كانت تلقي نوراً يتباين مع سواد زجاج السطيحة، نور حادّ ساطع، مثل وعد بفصول الربيع والصيف القادمة.

- يجدر بنا التوجّه جنوباً...

كنت أجد متعة في التلفّظ بكلمة «جنوب». في ذلك المساء، داخل تلك الصالة المقفرة، تحت أضواء النيون، لم يكن للحياة أيّ ثقل بعد، وكان الهروب غاية في السهولة... تخطّت الساعة منتصف الليل. توجّه صاحب المكان نحو طاولتنا ليعلن لنا أنّها ساعة الإغلاق في مقهى دانتي.

Twitter: @ketab_n

وجدنا في الحقيبة رزمتين رقيقتين من الأوراق النقديّة، وقفّازين، وكتباً حول جراحة الأسنان وكبّاسة. بدت الخيبة على جاكلين عند رؤية حجم الرزمتين الهزيلتين.

قبل التوجّه جنوباً ومن ثمّ إلى مايوركا، قرّرنا المرور بلندن. تركنا الحقيبة في مستودع الأمانات في محطّة غار دو نور.

كان علينا انتظار القطار لأكثر من ساعة في مقهى المحطّة. اشتريت ظرفاً وطابعاً بريديّاً، وأرسلت قسيمة خزانة الأمانة إلى كارتو، الرقم 160 جادّة أوسمان. أرفقتها بكلمة وعدت فيها بتسديد المبلغ له في مستقبل قريب جدّاً.

Twitter: @ketab_n

كان لا بدّ للواحد في ربيع تلك السنة في لندن من أن يكون بالغاً ومتزوّجاً حتّى ينزل في فندق. انتهى بنا الأمر في ما يشبه بيت ضيافة في بلومزبري، حيث تظاهرت صاحبة النزل بأنّها تصدّق أنّنا شقيق وشقيقة. عرضَتْ علينا غرفة تستخدم كقاعة تدخين أو صالة للمطالعة، فيها ثلاث كنبات ومكتبة. لم يكن بوسعنا البقاء فيها لأكثر من خمسة أيّام، بشرط أن ندفع الإيجار مسبقاً.

بعد ذلك، نجحنا في الحصول على غرفتين في فندق كمبرلند المنتصب بواجهته الضخمة في ساحة ماربل آرتش، بعدما تقدّمنا كلّ بمفرده إلى مكتب الاستقبال، وكأنّنا لا يعرف أحدنا الآخر. لكنّنا غادرنا الفندق أيضاً بعد ثلاثة أيّام، حين تنبّهوا إلى الخدعة.

Twitter: @ketab_n

لم نكن ندري على الإطلاق أين نبيت. بعد ماربل آرتش، مشينا عابرين مباشرةً على طول منتزه هايد بارك، وسلكنا جادّة ساسكس غاردنز التي تكمل صعوداً نحو محطّة بادينغتون للقطارات. كانت فنادق صغيرة تتعاقب على الرصيف الأيسر. اخترنا واحداً منها عشوائيّاً، وهذه المرّة لم يطلبوا حتّى أوراقنا.

Twitter: @ketab_n

كان الشكّ يعاودنا في الساعة ذاتها بانتظام، في الليل على طريق الفندق، مع فكرة الوصول إلى الغرفة حيث كنّا نمكث كأنّنا في سريّة، طالما أنّ صاحب الفندق يسمح لنا بذلك.

قبل عبور عتبة الفندق، كنّا نذرع جادّة ساسكس غاردنز صعوداً ونزولاً. لم يكن أيّ منّا يشعر بأيّ رغبة في العودة إلى باريس. بات محظوراً علينا المكوث من جانب رصيف لا تورنيل والحيّ اللاتينيّ. بالطبع، باريس مدينة شاسعة، وكان سيمكننا فيها تبديل حيّنا دون أن نواجه احتمال الالتقاء بجيرار فان بيفر أو كارتو. لكن من الأفضل عدم العودة إلى الوراء.

كم من الوقت انقضى قبل أن نتعرّف على ليندا وبيتر

Twitter: @ketab_n

راكمان ومايكل سافوندرا؟ ربّما خمسة عشر يوماً. خمسة عشر يوماً بدت طويلة بلا نهاية، أمطرت خلالها بلا توقّف. كنّا نذهب إلى السينما هرباً من تلك الغرفة ذات ورق الجدران المكسوّ ببقع العفونة. ثمّ نهيم مشياً، سالكين على الدوام شارع أوكسفورد، وصولاً إلى بلومزبري، في شارع بيت الضيافة الذي قضينا فيه ليلتنا الأولى في لندن. بعد ذلك، نعود ونسلك من جديد شارع أوكسفورد في الاتّجاه المعاكس.

كنّا نحاول تأخير وقت العودة إلى الفندق. لم يكن بوسعنا مواصلة المشي تحت ذلك المطر. كان لدينا على الدوام إمكان مشاهدة فيلم آخر، أو ولوج أحد المتاجر الكبرى أو مقهى. لكن في نهاية المطاف، لا بدّ لنا من الرضوخ والعودة إلى ساسكس غاردنز.

في عصر أحد الأيّام، أحسست بالذعر يتملّكني بعدما غامرنا ومضينا أبعد إلى أسفل الشارع حتّى ضفّة نهر تايمز المقابلة. كانت ساعة الزحمة، وسكّان الضواحي يتدفّقون في سيل نحو المحطّة، عابرين جسر واترلو. كنّا

Twitter: @ketab_n

نمشي عكس التيّار على الجسر، وخفت أن يجرفنا ذلك المدّ البشريّ في عكس اتّجاهنا. لكنّنا تمكنّا من التفلّت منه. جلسنا على مقعد في ميدان ترافلغار سكوير. لم نتبادل كلمة واحدة في طريقنا.

- هل أنت متوعّك؟ سألتني جاكلين. تبدو شاحباً للغاية...

كانت تبتسم لي. لكنّني شعرت بوضوح أنّها تجاهد للحفاظ على هدوئها. فكرة السير مجدّداً وسط حشود شارع أوكسفورد للعودة إلى الفندق كانت ترهقني. لم أجرؤ على الاستفهام منها إن كانت تشعر بالتخوّف ذاته. قلت:

- ألا تجدين أنّها مدينة شاسعة إلى حدّ يفوق المنطق؟

حاولْتُ أن أبتسم أنا أيضاً. كانت تراقبني مقطّبة.

- إنّها مدينة هائلة ولا نعرف أحداً...

كان صوتي واهناً. لم يعد بوسعي التلفّظ بأدنى كلمة.

أشعلَتْ سيجارة. كانت ترتدي سترتها الجلديّة الخفيفة وتسعل قليلاً، كما في باريس. شعرْتُ بالحنين إلى رصيف لا تورنيل وجادّة أوسمان ومحطّة سان لازار.

Twitter: @ketab_n

– كانت الأمور أسهل في باريس...

لكنّني تكلّمت بصوت منخفض إلى حدّ تساءلتُ معه إن كانت سمعتني. كانت سارحة في أفكارها وقد نسيتْ وجودي. كان هناك أمامنا حجرة هاتف حمراء خرجت منها امرأة للتوّ.

– من المؤسف ألّا يكون لدينا مَن نتّصل به، قلت لها.

التفتت صوبي ووضعت يدها على ذراعي. لقد تخطّت الإحباط الذي خالجها حتماً هي أيضاً قبل قليل، حين كنّا نسير في شارع ستراند باتّجاه ميدان ترافلغار سكوير.

– لا يلزمنا سوى القليل من المال للذهاب إلى مايوركا...

تلك الفكرة كانت تستحوذ عليها منذ أن عرفتها ورأيت العنوان على الظرف.

– في مايوركا، سنكون في طمأنينة. وستتمكّن من التفرّغ لتأليف كتبك...

أخبرتها في أحد الأيّام أنّ بودّي تأليف كتب في المستقبل، لكنّنا لم نتطرّق مرّة إلى هذا الموضوع فيما بعد. ربّما كانت تثيره لتهدّئ من روعي. لا شكّ أنّ لديها من

Twitter: @ketab_n

برودة الأعصاب ما يفوقني بكثير.

أردت أن أعرف رغم كلّ شيء بأيّ وسيلة كانت تنوي العثور على المال. لم ترتبك على الإطلاق:

– إن كان يمكن إيجاد مبلغ من المال، فذلك يكون في المدن. تصوّر لو كنّا تائهين في مكان ناء في وسط الريف...

أجل، بالطبع كانت على حقّ. فجأة بدا لي ميدان ترافلغار سكوير مطَمْئناً أكثر بكثير. تأمّلت المياه المنسابة من النوافير، وكان مشهدها يبعث فيّ الهدوء. لم يكن محكوماً علينا أن نبقى في هذه المدينة وأن نغرق في حشود شارع أوكسفورد. هدفنا كان في غاية البساطة: العثور على بعض المال للذهاب إلى مايوركا. كان الأمر أشبه بتركيبة فان بيفر الرابحة. كنّا محاطَين بعدد لا يحصى من الشوارع والمفارق، إلى حدّ يزيد من فُرَصنا، ويجعل من المحتوم في نهاية المطاف أن نستدرج صدفة سعيدة.

صرنا نتجنّب شارع أوكسفورد والوسط، ونسير دوماً غرباً، نحو منتزه هولاند بارك وحيّ كنزنغتن.

في عصر أحد الأيّام، التقطنا صوراً لنا في كشك

Twitter: @ketab_n

التصوير الآليّ في محطّة هولاند بارك للمترو. جلسنا أمام العدسة مقرّبين وجهينا. ما زلت أحتفظ بتلك الذكرى. كان وجه جاكلين يتصدّر الصورة، فيما وجهي في الخلفيّة بعض الشيء، يقطعه إطار الصورة، حاجباً أذني اليسرى. بعد وميض «الفلاش»، سيطرت علينا نوبة ضحك، وأرادت البقاء جالسة في حِجري في المقصورة. ثمّ تبعنا الجادّة المحاذية لمنتزه هولاند بارك، على طول المنازل البيضاء الفسيحة تتقدّمها أروقة مسقوفة. كان الطقس مشمساً لأوّل مرّة منذ وصولنا إلى لندن، ويبدو لي أنّه اعتباراً من ذلك العصر، بات الطقس دافئاً وجميلاً على الدوام، طقس صيف مبكّر.

تعرّفنا في وقت الغداء، في أحد مقاهي شارع نوتينغ هيل غايت، على فتاة تدعى ليندا جاكوبسن. بادَرت هي نفسها إلى مخاطبتنا. كانت فتاة سمراء بعُمرنا، شعرها طويل، وجنتاها عاليتان وعيناها الزرقاوان مشقوقتان قليلاً.

أرادت أن تعرف من أيّ منطقة من فرنسا كنّا قادمين. كانت تتكلّم ببطء، وكأنّها تتردّد عند كلّ كلمة، ما يجعل

Twitter: @ketab_n

من السهل مواصلة الحديث معها بالإنكليزيّة. بدت عليها الدهشة حين علمت أنّنا ننزل في أحد تلك الفنادق السيّئة السمعة في جادّة ساسكس غاردنز. لكنّنا شرحنا لها أنّه لم يكن يسعنا غير ذلك لأنّ كلينا قاصر.

في اليوم التالي، التقينا بها من جديد في الموقع نفسه، وهذه المرّة جلست إلى طاولتنا. سألتنا إن كنّا نعتزم البقاء في لندن لفترة طويلة. فوجئتُ بجاكلين تقول لها إنّنا ننوي المكوث عدّة أشهر، والبحث حتّى عن عمل.

- لكن في هذه الحالة، لا يمكنكما البقاء في هذا الفندق...

كلّ ليلة كانت تراودنا الرغبة في الرحيل، بسبب الرائحة التي كانت تطفو في الغرفة، رائحة نافذة تبعث على الغثيان، لم أكن أعلم إن كانت رائحة مياه الصرْف، أم رائحة مطبخ، أم حتّى البساط العفن. في الصباح، كنّا نخرج في نزهة طويلة في منتزه هايد بارك للتخلّص من تلك الرائحة العالقة على ملابسنا. كانت تتبدّد، غير أنّها تعود لاحقاً خلال النهار، فأسأل جاكلين:

- هل تشمّين الرائحة؟

Twitter: @ketab_n

كنت أشعر بالإحباط حين يخطر لي أنّها ستلاحقنا طوال حياتنا.

- الأمر الرهيب، قالت جاكلين للفتاة بالفرنسيّة، هو رائحة الفندق...

اضطررتُ إلى الترجمة كيفما تيسّر لي. فهمَتْ ليندا في نهاية الأمر. سألتنا إن كان لدينا بعض المال. لم يبق لدينا سوى واحدة من الرزمتين الرقيقتين اللتين كانت الحقيبة تحويهما.

- ليس الكثير، أجبت.

نظرَت إلينا، منقّلة عينيها بيننا، وهي تبتسم لنا. كنت أُفاجَأ كلّما أبدى لنا أحدهم تعاطفاً. بعد مضيّ وقت طويل، عثرت في قعر علبة أحذية مليئة بالرسائل القديمة، على الصورة التي التقطناها في كشك التصوير الآليّ، وذهلتُ لبراءة وجهينا. كنّا نوحي بالثقة. ولم يكن ذلك بفضلنا على الإطلاق، بل بفضل ما يضفيه الشباب للقليل القليل من الوقت على أيّ كان، مثل وعد مبهم لن يتحقّق أبداً.

- لديّ صديق يمكن أن يساعدكما، قالت لنا ليندا.

Twitter: @ketab_n

سوف أقدّمه لكما غداً.

غالباً ما كانت تتواعد معه على الالتقاء في ذلك المقهى. كانت تقطن على مسافة قريبة جدّاً. أمّا صديقها، فكانت مكاتبه على مقربة، إلى أعلى وستبورن غروف، الجادّة حيث صالتا السينما اللتان كنّا نرتادهما أنا وجاكلين. كنّا نقصدهما لمشاهدة العرض الأخير، من أجل تأخير عودتنا إلى الفندق، ولم نكن نأبه إن كنّا نشاهد فيهما الأفلام ذاتها كلّ مساء.

Twitter: @ketab_n

في اليوم التالي، قرابة الظهر، كنّا برفقة ليندا حين دخل بيتر راكمان المقهى. جلس إلى طاولتنا، حتى من غير أن يسلّم علينا. كان يدخّن سيجاراً ينثر رماده على طيّات سترته.

فاجأني مظهره، فهو بدا لي هرماً، رغم أنّه لم يكن تخطّى الأربعين. كان متوسّط القامة، جسيماً جدّاً، وجهه مستدير، جبينه عريض وأصلع، وكان يضع نظّارتين لهما إطار من العظم. كان له يدا طفل تتباينان مع بنيته البدينة.

شرعت ليندا في عرض وضعنا عليه، لكنّها كانت تتكلّم بسرعة بحيث لم يكن بوسعي أن أفهم ما تقول. كان شاخص النّظر إلى جاكلين بعينين شبه مغمضتين. بين الحين والآخر، كان يمجّ مجّة عصبيّة من سيجاره، نافثاً

Twitter: @ketab_n

الدخان في وجه ليندا.

حين صمتت، وجّه لنا أنا وجاكلين ابتسامة. غير أنّ عينيه بقيتا باردتين. سألني ما هو اسم الفندق الذي كنّا ننزل فيه في ساسكس غاردنز. قلت له إنّه فندق رادنور. قهقه بضحكة قصيرة:

- لا تدفعا بدل الغرفة... فأنا صاحب الفندق... عليكما أن تقولا للبوّاب من قِبَلي إنّ الإقامة مجّانيّة لكما...

ثمّ التفت إلى جاكلين:

- هل يعقل أن تقيم امرأة جميلة مثلك في رادنور؟

حاول التكلّم بنبرة اجتماعيّة لبقة، وكان ذلك يجعله يقهقه ضحكاً.

- هل تعمل في المجال الفندقيّ؟

لم يردّ على سؤالي. نفث دخان سيجاره من جديد في وجه ليندا وهزّ كتفيه.

- لا بأس...، قال بالإنكليزيّة.

كانت هذه العبارة الإنكليزيّة محطّ كلام لديه، يردّدها مراراً وتكراراً مخاطباً نفسه. نهض وابتعد لإجراء اتّصال

Twitter: @ketab_n

هاتفيّ. أحسّت ليندا بأنّنا حائران قليلاً، فعمدت إلى تقديم بعض التوضيحات. بيتر راكمان ذاك كان يعنى بشراء مبانٍ وإعادة بيعها. كلمة «مبانٍ» في هذه الحالة فضفاضة للغاية، إذ كانت الصفقات تتناول مساكن متقادمة، بل حتّى متداعية، معظمها في الجوار، في حيّي بايزووتر ونوتينغ هيل. لم تكن تفقه الكثير في أعماله. لكنّها حرصت على أن توضّح لنا على الفور أنّ مظهره الفظّ يخفي رجلاً كريم الأخلاق.

كانت سيّارة راكمان الجاغوار مركونة على مسافة قريبة. جلست ليندا في المقعد الأماميّ والتفتت صوبنا:

– بوسعكما السّكن معي بانتظار أن يجد بيتر لكما مكاناً آخر...

أقلع سالكاً الطريق المحاذي لمنتزه كنزنغتن غاردنز، ثمّ انعطف في جادّة ساسكس غاردنز وتوقّف أمام فندق رادنور.

– اصعدا ووضّبا حقائبكما، قال لنا. وإيّاكما أن تسدّدا الفاتورة...

Twitter: @ketab_n

لم يكن هناك أحد في مكتب الاستقبال. تناولت مفتاح غرفتنا عن المشجب. منذ أن نزلنا هناك، ونحن نترك ملابسنا في حقيبة السفر. حملْتُها ونزلنا على الفور. كان راكمان يذرع الرصيف أمام الفندق، السيجار بين شفتيه ويداه في جيبَي سترته.

– هل أنتما مسروران لمغادرة فندق رادنور؟

فتح صندوق الجاغوار ووضعْتُ حقيبة السفر فيه. وقبل الانطلاق، قال لليندا:

– عليّ أن أتوقّف لحظة في اللّيدو. وبعد ذلك، أوصلكما...

كنت لا أزال أشمّ رائحة الفندق المثيرة للغثيان، وتساءلت كم من الأيّام سوف يستغرق الأمر قبل أن تتبدّد نهائيّاً من حياتنا.

كان اللّيدو منتجعاً للسباحة في منتزه هايد بارك، يمتدّ على ضفّة بحيرة سيربنتاين. قطع راكمان أربع تذاكر دخول عند شبّاك الاستقبال.

– غريب... هذا المكان يشبه حوض السباحة في نادي

Twitter: @ketab_n

دولينيي، قلت لجاكلين.

لكن عند عبور المدخل، وصلنا إلى ما يشبه شاطئاً على ضفّة النهر، تصطفّ على حافّته بعض الطاولات تعلوها مظلّات. اختار راكمان طاولة في الظلّ. كان السيجار لا يزال بين شفتيه. جلسنا. وراح يمسح العرق عن جبينه وعنقه بمحْرمة بيضاء عريضة. التفت إلى جاكلين:

- يمكنك أن تستحمّي إن شئتِ...

- لا أحمل معي ثوب سباحة، قالت جاكلين.

- يمكننا العثور على واحد... سوف أرسل من يحضر لك ثوب سباحة...

- لا داعيَ لذلك، قاطعته ليندا بجفاء. هي لا ترغب في الاستحمام.

حنى راكمان رأسه وواصل مسح جبينه وعنقه.

- هل تودّون تناول بعض المرطّبات؟ عرض علينا.

ثم قال موجّهاً كلامه إلى ليندا:

- إنّني على موعد مع سافوندرا هنا.

ذلك الاسم كان يوحي لي بشخص قادم من بلاد بعيدة، وتوقّعت أن تقترب من طاولتنا امرأة هندوسيّة

Twitter: @ketab_n

ترتدي الساري.

عوضاً عن ذلك، ظهر رجل أشقر ثلاثينيّ، لوّح بذراعه في اتّجاهنا واقترب. ربّت على كتف راكمان وقدّم نفسه لي ولجاكلين:

- مايكل سافوندرا.

قالت له ليندا إنّنا فرنسيّان.

جرّ أحد كراسي الطاولة المجاورة وجلس قرب راكمان.

- إذَن؟ ما أخبارك؟ سأله راكمان وهو يحدّق به بعينيه الصغيرتين الباردتين.

- عملت من جديد على السيناريو... سوف نرى...

- أجل... كما تقول، سوف نرى.

تكلّم راكمان بنبرة ازدراء. جلس سافوندرا كاتفاً ذراعيه، محدّقاً بنا أنا وجاكلين.

- هل أنتما في لندن منذ فترة طويلة؟ سأل بالفرنسيّة.

- منذ ثلاثة أسابيع، أجبت.

بدا مهتمّاً للغاية بجاكلين.

- أقمت في باريس بعض الوقت، قال بلغته الفرنسيّة

Twitter: @ketab_n

المتلعثمة. في فندق لويزيانا، شارع السين... حاولْتُ تصوير فيلم في باريس...

- للأسف، لم ينجح المشروع، قال راكمان بنبرته المستخفّة، وفوجئت لفهمه الجملة بالفرنسيّة.

خيّم الصمت للحظة.

- لكنّني واثقة من أنّ المشروع سينجح هذه المرّة، قالت ليندا. أليس كذلك بيتر؟

هزّ راكمان كتفيه. سأل سافوندرا جاكلين بحرج، مواصلاً الكلام بالفرنسيّة:

- هل أنتِ من سكّان باريس؟

- أجل، قلت من غير أن أترك لجاكلين مجالاً للردّ بنفسها. على مقربة من فندق لويزيانا.

التقت نظراتنا أنا وجاكلين، وغمزتني. تملّكني فجأةً التوق إلى أن أجد نفسي أمام فندق لويزيانا، أن أمشي حتّى السين وأسير بمحاذاة خزائن باعة الكتب القديمة، حتّى رصيف لا تورنيل. لماذا ذلك الحنين المفاجئ إلى باريس؟

طرح راكمان سؤالاً على سافوندرا الذي كان يجيبه بنبر سريع. وكانت ليندا تدلو بدلوها في المحادثة. لكنّني لم

Twitter: @ketab_n

أعد أبذل جهداً لمحاولة فهم ما يقولون. وبدا لي جليّاً أنّ جاكلين أيضاً لم تعد تعير حديثهم أيّ اهتمام. كان ذلك تحديداً الوقت الذي نغفو فيه أغلب الأحيان خلال النهار، لأنّ النوم كان عسيراً في فندق رادنور ذاك، فلا نكاد نرقد أربع ساعات أو خمساً. وبما أنّنا كنّا نخرج باكراً في الصباح من الفندق ونؤخّر قدر المستطاع عودتنا إليه، كنّا نأخذ قيلولة على عشب منتزه هايد بارك.

كانوا يواصلون الكلام. بين الحين والآخر، كانت جاكلين تغمض عينيها، وأنا كذلك، ولو أنّني كنت أخشى أن أغفو. لكنّنا كنّا نتبادل ركلات طفيفة من تحت الطاولة حين نشعر بأنّ أحدنا على وشك أن يغلبه النعاس.

لا بدّ أنّني غفوت بضع لحظات. كانت همهمة حديثهم تختلط بضحكات وصيحات، كتلك التي تُسمَع على شاطئ البحر، وطرطشة سبّاحين يقفزون في الماء. أين كنّا؟ على ضفّة نهر المارن[1] أم بحيرة أنغان[2]؟ ذلك المكان

(1) نهر المارْن، أطول أنهار فرنسا، أكبر روافد نهر السّين.

(2) Enghien مدينة فرانكوفونيّة في المنطقة الوالونية من بلجيكا.

Twitter: @ketab_n

كان يشبه ليدو آخر، ليدو شونفيار[1] ونادي السبورتينغ في لافارين[2]. ذلك المساء، كنّا أنا وجاكلين مزمعين على العودة إلى باريس في قطار فانسين[3].

أحسست بيد تطبق بقوّة على كتفي. كان ذلك راكمان.

- هل أنت متعب؟

قبالتي، كانت جاكلين تسعى جاهدة لإبقاء عينيها مفتوحتين.

- لا بدّ أنكما لا تنامان كثيراً في فندقي، قال راكمان.

- أين كنتما تنزلان؟ سأل سافوندرا بالفرنسيّة.

في مكان أقلّ فخامة بكثير من فندق لويزيانا، أجبته.

- من حسن الحظّ أنّني التقيت بهما، قالت ليندا. سوف ينتقلان للإقامة عندي...

وددت لو أعرف ما الذي كان يجعلهم يرأفون على حالنا إلى هذا الحدّ. كان سافوندرا لا يزال يحدّق بجاكلين، لكنّها كانت تتجاهله، أو ربّما كانت تتظاهر

---

(1) Chennevières بلدة فرنسيّة في المنطقة الباريسيّة المعروفة باسم «إيل دو فرانس».

(2) La Varenne بلدة فرنسيّة.

(3) Vincennes بلدة في ضواحي شرق باريس.

Twitter: @ketab_n

بأنّها لا تلاحظه. بدا لي شبيهاً بممثّل أميركيّ كنت أبحث عن اسمه. آه أجل، جوزف كوتن[1].

- سوف تريان، قالت ليندا. ستكونان مرتاحين جدّاً في منزلي...

- في مطلق الأحوال، قال راكمان، لا تنقصنا الشقق. يمكنني أن أضع واحدة في تصرّفكما اعتباراً من الأسبوع المقبل...

كان سافوندرا يراقبنا بفضول. التفت إلى جاكلين:

- هل أنتما شقيقان؟ سألها بالإنكليزيّة.

ليس هذا يوم حظّك يا مايكل، أجاب راكمان بصوت جليديّ. إنّهما متزوّجان.

عند الخروج من اللّيدو، صافحَنا سافوندرا.

- آمل أن أراكما في القريب العاجل، قال بالفرنسيّة.

ثمّ سأل راكمان إن كان قرأ السيناريو الذي كتبه.

- لم أقرأه بعد. يلزمني وقت. كنت لا أكاد أحسن القراءة...

(1) ممثّل أميركيّ (1905 – 1994) برز في السينما والمسلسلات التلفزيونيّة.

Twitter: @ketab_n

وكان يقهقه بضحكته تلك العابرة، وعيناه لا تزالان باردتين خلف نظّارتيه العظميّتين.

سعياً منه لتبديد الحرج، توجّه سافوندرا إلينا أنا وجاكلين:

- أودّ أن تقرآ هذا السيناريو. فيه مشاهد تجري وقائعها في باريس، بوسعكما تصحيح الأخطاء اللغويّة.

- فكرة ممتازة، علّق راكمان. فليقرآه... هكذا سيعرضان لي ملخّصاً عنه...

ابتعد سافوندرا في أحد ممرّات منتزه هايد بارك، وألفينا نفسينا جالسين من جديد على المقعد الخلفيّ في سيّارة راكمان الجاغوار.

- هل هو جيّد، السيناريو الذي كتبه؟ سألْت.

- آه أجل... إنّي واثقة من أنّه ممتاز، أجابت ليندا.

- يمكنك أن تأخذه، قال راكمان. إنّه على الأرض.

كان هناك بالفعل ملفّ رمليّ اللّون عند أسفل المقعد الخلفيّ. لمته ووضعته على ساقيّ.

- يريدني أن أمدّه بثلاثين ألف جنيه ليصوّر فيلمه، شرح راكمان. هذا مبلغ طائل لسيناريو لن أقرأه على الإطلاق...

Twitter: @ketab_n

كنّا عدنا إلى حيّ ساسكس غاردنز. خفت أن يعيدنا إلى الفندق، وأحسست من جديد برائحة الرواق والغرفة باعثة على الغثيان. لكنّه واصل طريقه في اتّجاه نوتينغ هيلّ. ثمّ انعطف يميناً، نحو الجادّة حيث قاعتا السينما، وسلك شارعاً محاطاً بأشجار وبمنازل بيضاء ذات مدخل مسقوف. وتوقّف أمام أحدها.

خرجنا من السيّارة مع ليندا. وبقي راكمان خلف المقود. تناولْتُ حقيبة السفر من صندوق السيّارة وفتحَتْ ليندا البوّابة من الحديد المسبوك. صعدنا أدراجاً شديدة الانحدار. كانت ليندا تتقدّمنا. وجدنا بابين على بسطة الأدراج. فتحت ليندا الباب إلى اليسار. دخلنا غرفةً جدرانها بيضاء. ونوافذها تطلّ على الشارع. لم يكن هناك أيّ قطعة أثاث. مجرّد فراش واسع موضوع أرضاً. الغرفة المجاورة كانت حمّاماً.

- ستكونان على ما يرام هنا، قالت ليندا.

كنت أرى من النافذة سيّارة راكمان السوداء وسطَ بقعة شمس.

- أنتِ في غاية اللطافة، قلت لها.

Twitter: @ketab_n

- لا إطلاقاً... هذا بيتر... الشقّة له... يملك الكثير من الشقق...

أرادت أن ترينا غرفتها. كانت خلف الباب الآخر، على بسطة الأدراج. وجدنا ملابس وأسطوانات مرميّة على السرير وعلى الأرض الخشبيّة. كانت تعبق برائحة تطبق على الصدر، شبيهة بالرائحة في فندق رادنور، غير أنّها أكثر نفاذاً: رائحة القنّب الهندي[1].

- لا تنظرا إلى الفوضى، قالت ليندا. غرفتي دائماً على هذه الحال...

كان راكمان خرج من السيّارة وكان واقفاً أمام مدخل المنزل، يمسح جبينه وعنقه من جديد بمحرمته البيضاء.

- لا بدّ أنّكما بحاجة إلى بعض المال للمصروف؟

مدّت لنا ظرفاً أزرق سماويّاً. كنت على وشك أن أقول لها إنّنا لسنا بحاجة إلى المال، غير أنّ جاكلين تناولت الظرف من دون أيّ حرج.

- شكراً جزيلاً، قالت وكأنّ الأمر طبيعيّ تماماً. سوف نسدّد المبلغ لكما في أسرع وقت...

(1) من النباتات المهلوسة.

Twitter: @ketab_n

- أتأمّل ذلك، أجاب راكمان. ومع فوائد... في مطلق الأحوال، سوف تسدّدين لي المال عيناً...

قهقه ضاحكاً.

مدّت لي ليندا حمّالة مفاتيح.

- هناك مفتاحان، قالت. أحدهما للبوّابة على الشارع، والآخر للشقّة.

صعدا في السيّارة. وقبل أن ينطلق راكمان، فتحت ليندا النافذة.

- سوف أعطيكما عنوان الشقّة، في حال ما إذا أضعتما طريقكما.

كتبت العنوان على ظهر الظرف الأزرق السماويّ: 22 شارع تشيبستو فيلاز.

عند العودة إلى الغرفة، فتحت جاكلين الظرف. كان يحتوي على مائة جنيه.

- لم يكن يجدر بنا القبول بهذا المبلغ، قلت لها.

- بلى... نحن بحاجة إليه للذهاب إلى مايوركا.

أدركتْ أنّني لم أكن مقتنعاً.

Twitter: @ketab_n

- نحن بحاجة إلى حوالى عشرين ألف فرنك لإيجاد منزل والعيش في مايوركا... حين نصبح هناك، لن نعود بحاجة إلى أحد...

دخلَتِ الحمّام وسمعْتُ صوت الماء ينهمر في المغطس.

- هذا رائع، قالت لي. لم أستحمّ منذ وقت طويل جدّاً...

كنت ممدّداً على الفراش، أجاهد حتّى لا أغفو. سمعتها تستحمّ. وفي لحظة ما، قالت لي:

- سوف ترى كم هو لذيذ، الإحساس بالمياه الساخنة...

في مغسلة غرفتنا في فندق رادنور، لم يكن ينساب سوى خيط رفيق من المياه الباردة.

كان الظرف الأزرق السماويّ موضوعاً بجانبي على الفراش. شعرت بخدر ناعم يجتاحني، تلين معه تحفّظاتي.

قرابة السابعة مساء، أيقظتنا أنغام موسيقى جامايكيّة منبعثة من غرفة ليندا. قبل أن ننزل الأدراج، دققت على بابها. كنت أشمّ رائحة القنّب الهنديّ.

فتحَت الباب بعد وقت طويل. كانت ترتدي مبذلاً

Twitter: @ketab_n

من القطن الأحمر. مدّت رأسها من فتحة الباب:

- عذراً... إنّني برفقة صديق...

- أردت فقط أن أتمنّى لك أمسية طيّبة، قالت جاكلين.

تردّدت ليندا، ثمّ حسمت أمرها وقالت:

- هل يمكنني أن أثق بكما؟ حين نرى بيتر، يجب ألّا يعرف أنّني أستقبل صديقاً هنا... إنّه غيور جدّاً...

في المرّة الأخيرة، جاء بغتةً وكاد يحطّم الغرفة بكاملها ويرميني من النافذة.

- ماذا لو حضر هذا المساء؟ سألتها.

- غادر ليومين. ذهب إلى شاطئ البحر، إلى بلاكبول، لشراء أكواخ قديمة.

- لماذا يعاملنا بهذا اللطف؟ سألَتْ جاكلين.

- بيتر يعطف كثيراً على الشبّان. يكاد لا يخالط أشخاصاً من عمره. لا يحبّ سوى الشبّان...

تناهى صوت رجل يناديها، صوت كتيم تكاد الموسيقى تغلب عليه.

- عذراً... إلى اللقاء... وتصرّفا على هواكما...

ابتسمت وأغلقت الباب. علت الموسيقى أكثر وبقينا

Twitter: @ketab_n

نسمعها من بعيد في الشارع.

- يبدو لي رغم كلّ شيء غريب الأطوار، راكمان ذاك، قلت لجاكلين.

هزّت كتفيها.

- أنا لا يخيفني...

لكأنّها عرفت في الماضي رجالاً من هذا الصنف وتعتبره غير مؤذٍ.

- في مطلق الأحوال، هو يحبّ الشبّان...

قلت هذه الجملة الأخيرة بنبرة تنذر بالشؤم، جعلَتْها تضحك. كان المساء قد هبط. أمسكت بذراعي، ولم أعد أرغب في التساؤل ولا التخوّف من المستقبل. كنّا نمشي نحو كنزنغتن عبر شوارع صغيرة هادئة، شوارع ريفيّةٍ. عبرت سيّارة أجرة، فرفعت جاكلين ذراعها لتستوقفها. أعطت عنوان مطعم إيطاليّ من ناحية نايتسبريدج كانت لاحظته خلال إحدى نزهاتنا، وخطر لها أن نذهب لتناول العشاء فيه حين نصبح ثريّين.

Twitter: @ketab_n

كانت الشقّة في صمت، ولم يعد أيّ نور يرشح من تحت باب ليندا. فتحنا النافذة قليلاً. لا صوت على الإطلاق في الشارع. في الجهة المقابلة، تحت أوراق الأشجار، حجرة هاتف حمراء، فارغة ومضاءة.

في تلك الليلة، خُيّل لنا أنّنا نقيم في الشقّة منذ زمن طويل. كان سيناريو مايكل سافوندرا على الأرض حيث تركته. شرعت في قراءته. كان عنوانه «الأحد في بلاكبول[1]». البطلان فتاة وفتى في العشرين، يهيمان في ضاحية لندن. كانا يرتادان اللّيدو، على ضفّة بحيرة سيربنتاين، ويقصدان شاطئ بلاكبول في شهر أغسطس. يتحدّران من أصول متواضعة ويتكلّمان لغة شوارع لندن. ثمّ في أحد الأيّام، غادرا إنكلترا. نجدهما في باريس، وبعد ذلك في جزيرة متوسّطيّة قد تكون مايوركا، يعيشان فيها أخيراً «الحياة الحقيقيّة». ومع تقدّمي في القراءة، كنت ألخّص الحبكة لجاكلين. كانت أمنية سافوندرا، مثلما يقول في المقدّمة، أن يصوّر هذا الفيلم على طريقة الأفلام الوثائقيّة، فيختار فتى وفتاة لا يكونان من الممثّلين المحترفين.

(1) Blackpool مدينة ساحليّة في شمال غرب بريطانيا.

Twitter: @ketab_n

أذكر أنّه عرض عليّ أن أصحّح الأخطاء اللغويّة في الجزء من السيناريو حيث يرد ذكر باريس. كان هناك بعض الأخطاء، فضلاً عن بعض الأخطاء الطفيفة جدّاً المتعلّقة بشوارع حيّ سان جرمان ديه بريه. ومع تعاقب الصفحات، رحت أتصوّر تفاصيل يمكن إضافتها، أو أخرى يمكن تعديلها. كنت أودّ إطلاع سافوندرا عليها، وربّما، إن وافق على ذلك، العمل معه على سيناريو «الأحد في بلاكبول».

Twitter: @ketab_n

في الأيّام التالية، لم تسنح لي الفرصة في أن ألتقي بمايكل سافوندرا من جديد. قراءة «الأحد في بلاكبول» بعثت فيّ فجأةً الرغبة في كتابة قصّة. وذات صباح، نهضت في وقت باكر جدّاً، متوخّياً إثارة أقلّ قدر ممكن من الضجيج حتّى لا أوقظ جاكلين التي كانت تنام عادةً حتّى الظهر.

اشتريت كرّاسة من أوراق الرسائل من متجر في شارع نوتينغ هيل غايت، ثمّ واصلت السير مباشرةً على طول جادّة هولاند بارك، في تلك الصبيحة الصيفيّة. أجل، كنّا في وسط الصيف أثناء إقامتنا في لندن. لذلك، فإنّ الذكرى التي أحتفظ بها عن بيتر راكمان هي ذكرى خيالٍ أسود ضخم يرتسم على خلفيّة النور، على ضفّة بحيرة سيربنتاين. لا أميّز ملامح وجهه من شدّة التباين الحادّ بين

Twitter: @ketab_n

الظلّ والشمس. وأصوات الشاطئ تلك الصافية البعيدة تحت وطأة الشمس والضباب المتصاعد من شدّة الحرّ. وصوت ليندا. وصوت مايكل سافوندرا يسأل جاكلين:

– هل أنتما في لندن منذ وقت طويل؟

جلستُ في كافيتيريا قريبة من هولاند بارك. لم يكن لديّ أدنى فكرة عن القصّة التي أودّ أن أرويها. كان يُخَيّل لي أنّ عليّ رصف بضع جُمل جزافاً. كان الأمر أشبه بإطلاق مضخّة أو تشغيل محرّك صدئ.

وكلّما مضيت في كتابة الكلمات الأولى، اتّضح لي تأثير «الأحد في بلاكبول» عليّ. لكن لا همّ إن شكّل سيناريو سافوندرا منطلقاً لي. يصل البطلان إلى محطّة غار دو نور في مساء يوم من أيّام الشتاء. إنّها أوّل مرّة في حياتهما يزوران فيها باريس. يهيمان مطوّلاً في ذلك الحيّ بحثاً عن فندق. يجدان واحداً في جادّة ماجنتا، يوافق حارسه على استقبالهما: فندق إنكلترا وبلجيكا. في الفندق المجاور، فندق لندن وأنتفيربن، رفضوا منحهما غرفة بحجّة أنّهما قاصران.

يلازمان الحيّ، وكأنّما يخشيان المجازفة والخروج

Twitter: @ketab_n

منه. عند المساء، في المقهى على زاوية شارعي كومبيانيه ودانكرك، في الجهة المقابلة تماماً لمحطّة غار دو نور، يجلسان إلى الطاولة المجاورة لطاولة زوجين غريبين، السيّد والسيّدة شاريل اللذين نتساءل عمّا جاء بهما إلى هناك: هي شقراء في غاية الأناقة، وهو أسمر يتكلّم بصوت عذب. يدعوهما الزوجان إلى شقّة في جادّة ماجنتا، غير بعيدة عن فندقهما. غرف الشقّة معتمة. تقدّم لهما السيّدة شاريل مشروباً كحولياً...

توقّفت عند هذا الحدّ. ثلاث صفحات ونصف. بطلا «الأحد في بلاكبول» يلفيان نفسيهما فور وصولهما إلى باريس في سان جرمان ديه بريه، في فندق لويزيانا. وها أنّني أمنعهما من عبور نهر السين، وأتركهما يتخبّطان ويتيهان في عمق حيّ محطّة غار دو نور.

الزوجان شاريل غير موجودين في السيناريو. إنّه تصرّف إضافيّ بالنصّ من صنعي أنا. كنت متلهّفاً لمواصلة الكتابة، لكنّني كنت لا أزال في بداياتي المتلعثمة، وأكثر خمولاً من أن أركّز انتباهي لأكثر من ساعة، ولكتابة أكثر من ثلاث صفحات في اليوم.

Twitter: @ketab_n

في كلّ صباح، كنت أذهب للكتابة قرب هولاند بارك، فلا أعود في لندن بل أمام محطّة غار دو نور، أمشي على طول جادّة ماجنتا. اليوم، بعد مضيّ ثلاثين عاماً، في باريس، أحاول التفلّت من شهر يوليو ذاك من العام 1994، نحو ذلك الصيف الآخر حيث النسيم يداعب بخفّة أوراق الأشجار في جادّة هولاند بارك. كان التباين بين الظلّ والشمس شديداً إلى حدّ لم أشاهد مثله منذ ذلك الحين.

أفلحتُ في التخلّص من تأثير «الأحد في بلاكبول»، لكنّني كنت ممتنّاً لمايكل سافوندرا لأنّه أحدث فيّ نوعاً من الانطلاق المفاجئ. سألت ليندا إن كان بإمكاني لقاؤه. اجتمعنا ذات مساء، أنا وهو وجاكلين وليندا، في مقهى

Twitter: @ketab_n

ريو في نوتينغ هيل، مقهى يرتاده جامايكيّون. في ذلك المساء، كنّا الزبائن البيض الوحيدين، لكنّ ليندا كانت تعرف المقهى جيّداً. أعتقد أنّها كانت تتزوّد هناك بالقنّب الهنديّ الذي كانت جدران الشقّة مشبّعة برائحته.

قلت لسافوندرا إنّني صحّحت الأخطاء اللغويّة في القسم من السيناريو الذي تجري وقائعه في سان جرمان ديه بريه. كان قلقاً. يتساءل إن كان راكمان سيمدّه بالمال، وإن لم يكن يجدر به إجراء اتّصالات مع منتجين في باريس. فهُم على استعداد لوضع ثقتهم في «شبّان»...

- لكن يبدو أنّ راكمان يحبّ الشبّان هو أيضاً، أجبته.

قلت ذلك وأنا أنظر إلى جاكلين التي ابتسمت لي. ردّدت ليندا ساهمة:

- صحيح... هو يحبّ الشبّان...

اقترب جامايكيّ ثلاثينيّ قصير القامة له إهابُ فارس سباقات خيل، وجلس بجانبها، محيطاً كتفيها بذراعه. قدّمته لنا:

- إيدجروز...

حفظْت اسمه عبر كلّ هذه السنوات. إيدجروز.

Twitter: @ketab_n

قال لنا إنّه يتشرّف بلقائنا. عرفت ذلك الصوت الكتيم، صوت الرجل الذي كان ينادي ليندا من خلف الباب في غرفتها.

وفيما كان إيدجروز يخبرني أنّه عازف موسيقى وأنّه عائد من جولة في السويد، ظهر بيتر راكمان. كان يسير نحو طاولتنا، عيناه شاخصتان لا ترفّان خلف نظّارتيه العظميّتين. انتفضت ليندا جفِلة.

تسمّر أمامها وبادرها بصفعة بظهر يده.

نهض إيدجروز وأمسك خدّ راكمان الأيسر بين إبهامه وسبابته. هزّ راكمان رأسه للإفلات منه وسقطت نظّارتاه. حاولنا أنا وسافوندرا تفريقهما فيما تحلّق روّاد المقهى الجامايكيّون الآخرون حول طاولتنا. حافظت جاكلين على هدوئها وبدت غير مبالية تماماً للمشهد، وقد أشعلت سيجارة.

كان إيدجروز يمسك راكمان من خدّه ويجرّه نحو المدخل، مثل أستاذ يطرد تلميذاً مشاكساً من الصفّ. كان راكمان يحاول الإفلات منه وبحركة مفاجئة من ذراعه اليسرى، سدّد له لكمة على أنفه. أفلت إيدجروز

Twitter: @ketab_n

قبضته. ففتح راكمان باب المقهى ووقف بلا حراك في وسط الرصيف.

لحقْتُ به ومددت له نظّارتيه العظميّتين اللّتين لمتهما من على الأرض. كان فجأةً في غاية الهدوء. وأخذ يمسّد وجنته.

- شكراً صديقي، قال لي. لا نفع في أن ننكّد حياتنا من أجل عاهرات إنكليزيّات.

أخرج من جيب سترته محرمته البيضاء وشرع يمسح بعناية عدستَي نظّارتيه. ثمّ عمل على تقويمهما في حركة متكلّفة، ضاغطاً بيديه على حمّالتيهما.

صعد في سيّارته الجاغوار. وقبل أن ينطلق، فتح النافذة:

- كلّ ما أتمنّاه لك يا صديقي هو ألّا تكون خطيبتك مثل كلّ هذه العاهرات الإنكليزيّات...

كان الصمت مخيّماً حول الطاولة. بدا مايكل سافوندرا وليندا مغمومين. أمّا إيدجروز، فكان يدخّن سيجارة بهدوء. وكان هناك قطرة دم على أحد منخاريه.

Twitter: @ketab_n

– سيكون بيتر الآن في مزاج سيّئ، قال سافوندرا.

– سيبقى على هذه الحال بضعة أيّام، قالت ليندا هازّةً كتفيها. وبعدها ينسى.

التقت أنظارنا أنا وجاكلين. أحسست بأنّ التساؤلات ذاتها تراودنا: هل يجدر بنا البقاء في تشيبستو فيلاز؟ وما الذي كنّا نفعله تحديداً برفقة هولاء الأشخاص الثلاثة؟ كان جامايكيّون أصدقاء لإيدجروز يقتربون ليسلّموا عليه، والمقهى يزداد اكتظاظاً وصخباً. إن نحن أغمضنا عيوننا، خُيّل لنا أنّنا في مقهى دانتي.

أصرّ مايكل سافوندرا على مرافقتنا في شوط من طريقنا. تركنا ليندا وإيدجروز وأصدقاءهم الذين باتوا يتجاهلوننا في نهاية المطاف، وكأنّنا دخيلان عليهم.

كان سافوندرا يسير بيننا أنا وجاكلين.

– لا بدّ أنّكما تفتقدان باريس، قال.

– ليس بالضرورة، أجابت جاكلين.

– الوضع مختلف بالنسبة لي، قلت له. فأنا في كلّ صباح في باريس.

Twitter: @ketab_n

شرحت له أنّني أعمل على تأليف رواية، وأنّ قصّتها تبدأ في حيّ محطّة غار دو نور.

- استوحيتها من «الأحد في بلاكبول»، اعترفتُ له. تروي هي أيضاً قصّة شابّ وشابة...

لكنّه لم يبدُ مستاءً من ذلك. تأمّلَنا منقّلاً النظر بيننا.

- هل هي قصّتكما؟

- لا، ليس تماماً، أجبت.

كان مهموماً. يتساءل إن كان سيتمكّن من إصلاح الحال مع راكمان. فالأخير قادر على منحه الثلاثين ألف جنيه عدّاً ونقداً في صباح الغد في حقيبة، حتّى من غير أن يقرأ السيناريو. أو أن يردّ طلبه وهو ينفث دخان سيجاره في وجهه.

أخبرنا أنّ الموقف الذي شهدناه للتوّ كان يتكرّر كثيراً. الواقع أنّ راكمان كان يجد الأمر طريفاً. كان بالنسبة له وسيلة لنسيان إرهاقه وإحباطه. حياته يمكن أن تشكّل مادّة لرواية. وصل راكمان إلى لندن بُعيد الحرب، من جملة لاجئين آخرين قادمين من الشرق. ولد في مكان ما من تلك المنطقة الملتبسة عند تخوم الإمبراطوريّة النمساويّة

Twitter: @ketab_n

المجريّة وبولندا وروسيا، في إحدى المدن الحاميات تلك الصغيرة التي تبدّلت أسماؤها مرّات عديدة.

- يجدر بك أن تطرح عليه بعض الأسئلة، قال لي سافوندرا. ربّما يجيبك أنت...

كنّا وصلنا إلى شارع وستبورن غروف. نادى سافوندرا سيّارة تاكسي كانت تمرّ من هناك.

- لا تؤاخذاني إن لم أرافقكما حتّى النهاية... فأنا منهك...

وقبل أن يصعد في سيّارة الأجرة، كتب على علبة سجائر فارغة عنوانه ورقم هاتفه. كان يتوقّع منّي أن أتّصل به في أسرع وقت ممكن حتّى نراجع معاً التصحيحات التي أجريتها على سيناريو «الأحد في بلاكبول».

كنّا وحيدين من جديد.

- يمكننا القيام بنزهة قبل أن نعود، قلت لجاكلين.

ما الذي كان ينتظرنا في تشيبستو فيلاز؟ هل كان راكمان يرمي أثاث الشقّة من النافذة كما روت لنا ليندا؟ أم ربّما كان قابعاً يتربّص بها ليباغتها، هي وأصدقاءها

Twitter: @ketab_n

الجامايكيّين؟

وصلنا أمام منتزه صغير نسيت اسمه. كان قريباً من الشقّة، وغالباً ما تفحّصت خارطة للندن بحثاً عنه. أكان لادبروك سكوير؟ أم كان على مسافة أبعد، من ناحية بايزووتر؟ واجهات المنازل المحيطة به كانت مظلمة، ولو أُطفئت المصابيح في تلك الليلة، لكان بوسعنا الاهتداء إلى طريقنا على نور البدر.

كان هناك مفتاح منسيّ في قفل البوّابة الصغيرة المشبّكة. فتحْتُها ودخلنا إلى المنتزه، ثمّ أقفلت البوّابة بالمفتاح من الداخل. كنّا حبيسين هناك ولم يعد بوسع أحدٍ الدخول. غمرتْنا نداوة، وكأنّنا نسلك درباً في وسط الغابة. الأشجار من فوقنا كانت وارفة كثّة، لا تكاد ترشح منها أشعّة القمر. والعشب لم يُجزّ منذ وقت طويل. وجدنا مقعداً خشبيّاً تناثرت حوله الحصى. جلسنا. كانت عيناي تعتادان تدريجيّاً على العتمة وبدأت أميّز في وسط المنتزه قاعدة ينتصب عليها ظلّ حيوان متروك هناك تساءلت إن كان لبوة أم فهداً، أم بكلّ بساطة كلباً.

– كم يطيب الجلوس هنا!، قالت لي جاكلين.

Twitter: @ketab_n

وأسندت رأسها إلى كتفي. كانت أغصان الأشجار تحجب المنازل حول المنتزه. لم نعد نشعر بالحرّ الخانق الذي كان يلقي بثقله منذ بضعة أيّام على لندن، مدينة يكفي أن ننعطف فيها عند زاوية شارع حتّى نلفي أنفسنا في غابة.

Twitter: @ketab_n

أجل، كان سافوندرا على حقّ، فسيكون بوسعي كتابة رواية عن راكمان. ثمّة جملة قالها عفويّاً لجاكلين ممازحاً في اليوم الأوّل، أثارت قلقي:

– سوف تسدّدين لي المال عيناً...

كان ذلك حين تناولَت منه الظرف الذي كان يحتوي على المائة جنيه. في عصر أحد الأيّام، ذهبتُ في نزهة وحيداً من ناحية هامبستيد، إذ كانت جاكلين تعتزم الذهاب في جولة تسوّق مع ليندا. عدت إلى الشقّة قرابة الساعة السابعة مساء. وجدت جاكلين وحيدة. كان ظرف مرميّاً على السرير، بلون الظرف الأوّل الأزرق السماويّ وبحجمه، غير أنّه كان يحتوي على ثلاثمائة جنيه. بدت جاكلين محرجة. انتظرَتْ ليندا طوال العصر، لكنّ ليندا

Twitter: @ketab_n

لم تأتِ. عوضاً عن ذلك، مرّ بها راكمان. هو أيضاً انتظر ليندا. وأعطاها ذلك الظرف الذي قبلتْه منه. وأنا قلت لنفسي في تلك الليلة أنّها سدّدت له المبلغ عيناً.

كانت رائحة سينتول منتشرة في الغرفة. راكمان كان يحمل على الدوام قارورة من ذلك الدواء. علمْتُ بعاداته ممّا أسرّت لي به ليندا. حين كان يتناول العشاء في المطعم، كان يأتي بنفسه بآنيته ويتفقّد المطبخ قبل تناول وجبته ليتثبّت من نظافته. كان يستحمّ ثلاث مرّات في اليوم ويدهن جسده بالسينتول. في المقهى، كان يطلب زجاجة من المياه المعدنيّة يصرّ على أن يفتحها بنفسه، ويكرع مباشرة من عنق الزجاجة ليتفادى وضع شفتيه على كوب قد لا يكون مغسولاً جيّداً.

كان ينفق على فتيات أصغر سنّاً منه بكثير ويؤمّن لهنّ شققاً شبيهة بشقّة تشيبستو فيلّاز. يزورهنّ عصراً، ومن غير أن يخلع ملابسه وبلا مقدّمات، يضاجعهنّ بتسرّع، بطريقة باردة وآليّة، كما لو كان يفرّش أسنانه، فارضاً عليهنّ أن يدرن له ظهورهنّ. بعد ذلك، يلعب معهنّ لعبة شطرنج على لوحة صغيرة يحملها دوماً في محفظته السوداء.

Twitter: @ketab_n

صرنا منذ ذلك الحين وحيدين في الشقّة. فقد اختفت ليندا. ولم نعد نسمع في الليل الموسيقى الجامايكيّة وقهقات الضحك. شعرنا ببعض الغربة، بعدما اعتدنا شريط النور ذاك المتسرّب من تحت باب ليندا. حاولت مراراً الاتّصال بمايكل سافوندرا، لكنّ الهاتف كان يرنّ ويرنّ ولا أحد يردّ.

كان الأمر كأنّنا لم نلتقِ بهم يوماً. اختفى أثرهم، ولم نعد نحن أنفسنا نفهم تماماً في نهاية المطاف كيف وصل بنا الأمر إلى هذه الغرفة. خُيّل لنا حتّى أنّنا اقتحمناها عنوة.

في الصباح، كنت أكتب صفحة أو صفحتين من روايتي وأمرّ باللّيدو لأرى إن لم يكن بيتر راكمان جالساً إلى الطاولة ذاتها كما في المرّة الماضية، على الشاطئ، عند

Twitter: @ketab_n

ضفّة بحيرة سيربنتاين. لكن لا. والرجل الذي سألته خلف مكتب الاستقبال لم يكن يعرف أحداً باسم بيتر راكمان. قصدت منزل مايكل سافوندرا في شارع والتون. دققت الجرس بلا نتيجة. دخلت بعدها متجر الحلوى في الطابق الأرضيّ، الذي كان يحمل على لافتته اسم جاستن دي بلانك. ما الذي جعل ذلك الاسم يبقى مطبوعاً في ذاكرتي؟ لم يكن بوسع المدعوّ جاستن دي بلانك ذاك أيضاً إمدادي بمعلومات. لم يكن يكاد يعرف سافوندرا، لمحه فقط من قبل. أجل، شابّ أشقر يشبه جوزف كوتن. لكنّه غالباً ما لا يكون موجوداً هناك، برأيه.

مشينا أنا وجاكلين حتّى مقهى ريو عند أطراف نوتينغ هيل، وسألنا الجامايكيّ الذي يدير المقهى عن إيدجروز وليندا. قال لنا إنّه لا يعرف عنهما شيئاً منذ عدّة أيّام، وبدوا هو وزبائنه مرتابين منّا.

Twitter: @ketab_n

ذات صباح، فيما كنت خارجاً من الشقّة كالعادة، حاملاً كرّاستي من ورق الرسائل، رأيت سيّارة راكمان الجاغوار متوقّفة عند زاوية شارع ليدبري.

مدّ رأسه من النافذة المفتوحة.

– كيف حالك صديقي؟ ما رأيك لو تذهب في جولة معي؟

فتح لي الباب وجلست بحانبه.

– كنّا نتساءل عمّا حلّ بك، قلت له.

لم أجرؤ على ذكر ليندا له. ربّما كان متوقّفاً في سيّارته منذ وقت طويل مترصّداً.

– أشغال كثيرة... هموم كثيرة... والمسائل ذاتها تتكرّر دوماً...

Twitter: @ketab_n

كان يحدّق بي بعينه الباردة من خلف نظّارتيه العظميّتين.

- وأنت؟ هل أنتَ سعيد؟

أجبته بابتسامة محرَجة.

كان أوقف السيّارة في شارع صغير محاط بمنازل مهدومة، وكأنّها تعرّضت للقصف.

- أترى؟ قال لي. هذا النوع من الأماكن هو الذي أعمل فيه دائماً...

وقف على الرصيف وأخرج طقم مفاتيح من محفظة سوداء كان يحملها بيده، لكنّه تدارك حركته ووضعه في جيب سترته.

- لم يعد يجدي نفعاً...

فتح بركلةٍ باب أحد المنازل، باب طلاؤه مقشّر، لم يبقَ من قفله سوى فجوة، ودخلنا. كان الركام يغطّي الأرض. أطبقَت على صدري الرائحة ذاتها التي كانت منتشرة في فندق ساسكس غاردنز، لكنّها كانت أقوى. شعرت بالغثيان. نقّب راكمان مجدّداً في محفظته وأخرج مصباحاً كهربائيّاً. جال بنوره حوله، كاشفاً في عمق القاعة عن فرن قديم صدئ. كان درج حادّ يؤدّي إلى الطابق الأوّل،

Twitter: @ketab_n

درابزينه الخشبيّ محطّم.

- بما أنّك تحمل أوراقاً وقلماً، بوسعك تدوين ملاحظات... قال لي.

تفحّص المنازل المجاورة التي كانت جميعها خربةً، كالذي كنّا فيه، وأخذ يملي عليّ تدريجيّاً بعض المعلومات، بعد استشارة مفكّرة أخرجها من محفظته السوداء.

في اليوم التالي، واصلْتُ كتابة روايتي على ظهر الورقة التي دوّنت عليها تلك الملاحظات، ولا أزال حتّى اليوم أحتفظ بها. لماذا أملاها عليّ؟ ربّما كان يريد أن تبقى نسخة منها محفوظة في مكان ما.

الموقع الذي توقّفنا فيه في بادئ الأمر في حيّ نوتينغ هيل كان يدعى بوويس سكوير، وكان يصبّ في شارع بوويس تيرّاس، ثمّ بوويس غاردنز. أحصيت بتوجيهات من راكمان الأرقام 5 و9 و10 و11 و12 في بوويس تيراس، والأرقام 3 و4 و6 و7 في شارع بوويس غاردنز، والأرقام 13 و45 و46 و47 في بوويس سكوير. صفوف منازل ذات باحة خارجيّة مسقوفة تعود إلى الحقبة «الإدواردية»، كما أوضح لي راكمان. أقام فيها جامايكيّون منذ نهاية الحرب،

Twitter: @ketab_n

غير أنّ راكمان أعاد اشتراءها دفعة واحدة في فترة كان مطروحاً فيها هدمُها. ثمّ إذْ خلت من سكّانها، صمّم على ترميمها.

عثر على أسماء سكّانها الأوائل، الذين سبقوا إليها الجامايكيّين. في الرقم 5 من شارع بوويس غاردنز مثلاً، دوّنْتُ اسم لويس جونز، وفي الرقم 6 اسم الآنسة دانجن. وفي الرقم 13 من بوييس سكوير اسم سيّد يدعى تشارلز إدوارد بودن، وفي الرقم 46 اسم آرثر فيليب كوهين، وفي الرقم 47 اسم آنسة تدعى ماري موتو... فقد يحتاج إليهم راكمان بعد مضيّ عشرين عاماً ليحصل على توقيعهم على ورقة ما، لكنّه لم يكن هو نفسه على قناعة فعلاً بذلك. حين سألته عن هؤلاء الأشخاص، أجابني أنّهم فُقدوا بمعظمهم على الأرجح خلال قصف لندن.

عبرنا حيّ بايزووتر واقتربنا من محطّة بادينغتون. وصلنا هذه المرّة إلى شارع أورسيت تيراس حيث المنازل ذات الأروقة المسقوفة تصطفّ على حافّة سكّة حديد، أعلى من المنازل التي مررنا بها قبلها. كانت الأقفال لا تزال مثبّتة على أبواب المداخل، واضطرّ راكمان إلى استخدام

Twitter: @ketab_n

طقم مفاتيحه. لا ركام على الأرض، ولا من ورق جدران متعفّن، ولا سلالم مخلّعة في الداخل، لكنّ الغرف لم تكن تحتفظ بأدنى أثر لوجود بشريّ، لكأنّ تلك المنازل مجرّد ديكور أقاموه لفيلم وغفلوا عن تفكيكه.

– إنّها فنادق قديمة لمسافرين، قال لي راكمان.

أيّ مسافرين؟ تصوّرت أشباحاً في الليل، تخرج من محطّة بادينغتون في اللحظة التي تدوّي فيها صفّارات الإنذار.

عند طرف أورسيت تيراس، فوجئت بأطلال كنيسة كانوا يهدمونها. بدا صحنها في العراء، وقد أزالوا السقف من فوقه.

– هذه أيضاً، كان يجدر بي شراؤها، قال راكمان.

تجاوزنا هولاند بارك ووصلنا إلى حيّ هامرسميث. لم يسبق لي أن مضيت حتّى تلك النقطة من لندن. توقّف راكمان في شارع تالغارث رود أمام صفّ من المنازل المهجورة الشبيهة ببيوت ريفيّة أو فيلّات صغيرة على شاطئ البحر. دخلنا أحدها وصعدنا إلى الطابق العلويّ.

Twitter: @ketab_n

كان زجاج المشرّبيّة محطّماً. وكان يصلنا ضجيج حركة السير. لفت انتباهي في إحدى زوايا الغرفة سرير قابل للطيّ، وعليه بذلة مغلّفة بكيس بلاستيكيّ شفّاف وكأنّها خارجة من المصبغة، وسترة بيجاما. تنبّه راكمان لنظرتي.

– أحياناً آتي إلى هنا للقيام بقيلولة، شرح لي.

– ألا يزعجك ضجيج حركة السير؟

هزّ كتفيه. ثمّ تناول البذلة المغلّفة بالبلاستيك ونزلنا الأدراج. كان يتقدّمني، حاملاً البذلة مثنيّة على ذراعه، وممسكاً بمحفظته السوداء بيده اليسرى، بمشية مندوب تجاريّ خارج من منزله للقيام بجولة في الأرياف.

مدّد البذلة بعناية على مقعد السيّارة الخلفيّ وجلس خلف المقود من جديد. التفّ بالسيّارة واتّجهنا صوب كنزنغتن غاردنز.

– حصل أن نمتُ في أماكن أقلّ راحة من تلك بكثير...

تفرّس في وجهي بنظرته الباردة.

– كنت بعمرك تقريباً...

كنّا نتبع جادّة هولاند بارك وبتنا على وشك العبور أمام الكافيتيريا حيث كنت أجلس عادةً في مثل تلك

Twitter: @ketab_n

الساعة لكتابة روايتي.

- عند نهاية الحرب، هربت من معسكر... كنت أنام في قبو أحد الأبنية... كان هناك جرذان في كلّ مكان... كنت أقول لنفسي إنّني إن غفوت، فسوف تلتهمني...

قهقه مطلقاً ضحكة هزيلة.

- كان يُخيّل لي أنّني جرذ بين الجرذان... في مطلق الأحوال، مضت عليّ أربع سنوات في تلك الفترة، والجميع يحاول إقناعي بأنّني جرذ...

كنّا تخطّينا الكافيتيريا. أجل، بوسعي إدخال شخصيّة راكمان إلى روايتي. سوف يلتقي بطلاي براكمان في جوار محطّة غار دو نور.

- أنت ولدت في إنكلترا؟ سألته.

- لا، في لفوف، ببولندا.

قال ذلك بنبرة جافّة، فهمت منها أنّني لن اعرف منه المزيد.

كنّا نسير بمحاذاة منتزه هايد بارك، في اتّجاه ماربل آرتش.

Twitter: @ketab_n

- أحاول تأليف كتاب، قلت له بخجل، محاولاً استئناف حديثنا.

- كتاب؟

بما أنّه ولد في لفوف، ببولندا، قبل الحرب وأنّه نجا من الحرب، فمن الممكن أنّه كان يومئذٍ في جوار محطّة غار دو نور. كان الأمر مسألة صدفة، لا غير.

أبطأ أمام محطّة ماريلبون، وظننت أنّنا سوف نزور مرّة جديدة منازل متهالكة على حافّة سكّة حديد. لكنّه سلك شارعاً ضيّقاً ووصلنا إلى منتزه ريجنتس بارك.

- ها نحن أخيراً في حيّ ميسور.

قالها مطلقاً ضحكة أشبه ما تكون بصهيل.

جعلني أدوّن العناوين: 125 و127 و129 شارع بارك رود، عند زاوية لورن كلوز، ثلاثة منازل خضراء باهتة ذات مشرّبيّات، آخِرها نصف مهدوم.

بعد استشارة البطاقات الصغيرة المرفقة بمفاتيح الطقم، فتح باب المنزل الواقع في الوسط، فإذا بنا في الطابق الأوّل، في غرفة فسيحة، أوسع من القاعة في منزل

Twitter: @ketab_n

تالغارث رود. كانت نوافذ المنزل سالمة.

في عمق الغرفة، السرير ذاته القابل لطيّ كما في تالغارث رود. جلس عليه ووضع محفظته السوداء بجانبه. ثمّ مسح العرق عن جبينه بمحرمته البيضاء.

كان ورق الجدران مقتلعاً في بعض المواقع، والأرضيّة الخشبيّة تنقصها بضعة ألواح.

- يجدر بك إلقاء نظرة من النافذة، قال لي. لا بدّ من رؤية المشهد.

بالفعل، أطللت على حدائق ريجنتس بارك وواجهات المباني المهيبة المحيطة بها. بياض جبسها وخضرة العشب أشاعا في نفسي إحساساً بالسلام والأمان.

- الآن، سوف أريك أمراً آخر...

نهض وتبعنا ممشى تتدلّى من سقفه أسلاك كهربائيّة قديمة، حتّى وصلنا إلى قاعة صغيرة عند مؤخّر المنزل. كانت نافذتها تطلّ على السكّة الحديد في محطّة ماريلبون.

- لكلّ من الجانبين سِحره، قال لي راكمان. أليس كذلك يا صديقي؟

ثمّ عدنا إلى القاعة، من جهة منتزه ريجنتس بارك.

Twitter: @ketab_n

عاد وجلس على السرير القابل للطيّ وفتح محفظته السوداء. أخرج منها شطيرتين مغلّفتين بورق الألمنيوم وقدّم لي إحداهما. جلست على الأرض قبالته.

- أعتقد أنّني سأترك هذا المنزل على حاله، وأنّني سأنتقل مستقبلاً للسكن فيه نهائيّاً...

قضم شطيرته. فكّرْتُ في البذلة المغلّفة بالسيلوفان. تلك التي كان يرتديها باتت متغضّنة، حتّى أنّ السترة فقدت أحد أزرارها، والحذاء ملطّخ بالوحل. فهو على الرغم من هوسه الشديد، وحرصه كلّ الحرص على النظافة، والشراسة التي يكافح بها الجراثيم، كان في بعض الأيّام يهب الانطباع بأنّه يستسلم، وبأنّه سيتحوّل شيئاً فشيئاً إلى مشرّد.

أنهى التهام شطيرته واستلقى على السرير. مدّ ذراعه وراح ينقّب في المحفظة السوداء التي وضعها أرضاً بجانب السرير. أخرج منها طقم المفاتيح وفكّ أحدها منه.

- هذا لك... خذه... وأيقظني بعد ساعة. يمكنك القيام بنزهة في ريجنتس بارك.

انقلب على جنبه، مديراً وجهه للجدار، وأطلق تنهّدة عميقة.

Twitter: @ketab_n

- أنصحك بزيارة حديقة الحيوانات. إنّها على مسافة قريبة جدّاً.

بقيت واقفاً للحظة أمام النافذة بلا حراك، وسط بقعة مشمسة، قبل أن أتنبّه إلى أنّه غفا.

Twitter: @ketab_n

كنّا عائدين أنا وجاكلين في إحدى الليالي إلى تشيبستو فيلاز، فوجدنا خيطاً من النور تحت باب ليندا. انبعثت الموسيقى الجامايكيّة من جديد حتّى وقت متأخّر جدّاً من اللّيل، وملأت رائحة القنّب الهنديّ الشقّة من جديد، كما في الأيّام الأولى التي انتقلنا فيها إليها.

كان بيتر راكمان يقيم سهرات في شقّة العزوبيّة التي كان يملكها في ساحة دولفين سكوير، وسطَ صفّ من المباني على ضفّة نهر التايمز، وكانت ليندا تصرّ على اصطحابنا إليها. عثرنا فيها من جديد على مايكل سافوندرا الذي كان تغيّب عن لندن لملاقاة منتجين في باريس. بيار روستانغ قرأ السيناريو وكان مهتمّاً به. بيار روستانغ. اسم آخر بلا وجه يطفو في ذاكرتي، غير أنّ أحرفه تحتفظ بوقع

Twitter: @ketab_n

خاصّ مثل جميع الأسماء التي سمعنا بها في سنّ العشرين.

كانت مجموعة متباينة من الأشخاص ترتاد سهرات راكمان. بعد ذلك بأشهر قليلة، اكتسحت لندن موجة من النضارة، مع أنماط موسيقيّة جديدة وملابس مزركشة. ويبدو لي أنّني التقيت خلال تلك السهرات في دولفين سكوير ببعض ممّن سيصبحون فيما بعد وجوه مدينة استعادت فجأةً نفحة شباب.

لم أعد أكتب في الصباح، بل اعتباراً من منتصف الليل. لم أكن أرغب في اغتنام السكينة والصمت. بكلّ بساطة، كنت أرجئ لحظة الشروع في العمل. وفي كلّ مرّة، كنت أنجح في التغلّب على كسلي. اخترت تلك الساعة لسبب آخر: كنت أخشى أن يعاودني ذاك القلق الذي غالباً ما أحسست به في الأيّام الأولى بعد وصولنا إلى لندن.

كانت جاكلين تشعر بالقلق ذاته حتماً، لكنّها كانت بحاجة إلى أن يكون حولها حشد وصخب.

كانت تغادر الشقّة في منتصف الليل مع ليندا. تذهبان إلى سهرات راكمان أو تقصدان أماكن معزولة، صوب نوتينغ هيل. عند راكمان، كان يمكن التعرّف على الكثير

Twitter: @ketab_n

من الأشخاص الذين يدْعوننا بدورهم. لأوّل مرّة في لندن، لم يعد الواحد يخال نفسه في الريف، على ما كان سافوندرا يقول. كان الجوّ مشحوناً بالكهرباء، على ما يبدو.

أذكر نزهاتنا الأخيرة. كنت أرافقها إلى شقّة راكمان في ساحة دولفين سكوير. لم أكن أرغب في الصعود ومخالطة كلّ ذلك الجمع. وفكرة العودة إلى الشقّة كانت تخيفني قليلاً. سيترتّب عليّ عندها رصف جُمَل على صفحة بيضاء، لكن لم يكن أمامي من خيار.

في تلك الأمسيات، كنّا نطلب من سائق سيّارة الأجرة أن يتوقّف أمام محطّة فيكتوريا، ثمّ نمشي من هناك إلى نهر التايمز، عابرين شوارع حيّ بيمليكو. كان ذلك في شهر يوليو. وكان الحرّ خانقاً، لكن كلّما نحاذي سياج حديقة، كانت تلفحنا نسائم، حاملة عطر نبتات الحناء أو أشجار الزيزفون.

كنت أفارقها عند المدخل المسقوف. كانت مباني دولفين سكوير ترتسم كتلةً في نور القمر. والأشجار تلقي بظلالها على الرصيف، مادّةً أغصانها بلا حراك. لم

Twitter: @ketab_n

تكن تهبّ أدنى نسمة ريح. من الجانب الآخر من رصيف نهر تايمز، عند الضفّة، كان مطعم على زورق يرفع لافتته المضيئة، والبوّاب ينتصب عند مدخل الجسر العائم. لكن لم يكن أحد يقصد ذلك المطعم على ما يبدو. كنت أراقب ذلك الرجل المسمّر إلى الأبد في بذلته. لم تعد السيّارات تعبر في تلك الساعة على رصيف النهر. لقد وصلتُ أخيراً إلى قلب الصيف الهادئ الموحش.

عند عودتي إلى تشيبستو فيلّاز، كنت أكتب، ممدّداً على السرير. ثمّ أطفئ الضوء وأقبع في الظلام منتظراً.

كانت تعود قرابة الثالثة صباحاً، وحيدة على الدوام. ليندا اختفت من جديد منذ بعض الوقت.

تفتح الباب دون صوت. وأتظاهر بأنّني نائم.

ثمّ، بعد بضعة أيّام، صرت أسهر حتّى الفجر، لكنّني لم أعاود قطّ سماع وقع خطاها على الأدراج.

Twitter: @ketab_n

بالأمس السبت، في الأوّل من أكتوبر 1994، عدت بالمترو إلى منزلي في ساحة إيطاليا[1]. كنت خرجت لجلب أشرطة أفلام من متجر هو على ما يقال أكثر اكتنازاً بالأشرطة من سواه. كان قد مضى وقت طويل من غير أن أزور ساحة إيطاليا، وألفيتها تغيّرت كثيراً، بسبب ناطحات السحاب.

بقيت واقفاً في مقطورة المترو قرب البوّابة. كانت امرأة جالسة على آخر مقعد في أقصاها، إلى يساري. لاحظتها لأنّها كانت تضع نظّارتين شمسيّتين، وتعقد تحت ذقنها وشاحاً، وترتدي معطفاً واقياً من المطر رمليّ اللّون. خُيّل لي أنّها جاكلين. كان المترو الجويّ يتبع جادّة أوغوست

(1) Place d'Italie أو ساحة أيطاليا، في قلب الدائرة الثالثة عشرة من باريس.

Twitter: @ketab_n

بلانكي. بدا لي في نور النهار أنّ وجهها هزل. كان بوسعي تمييز خطوط فمها وأنفها بوضوح. كانت تلك هي، تثبّتّ شيئاً فشيئاً من ذلك.

لم تكن تراني. كانت عيناها مخبّأتين خلف نظّارتيها الشمسيّتين.

نهضَت عند محطّة كورفيزار وتبعْتُها على رصيف القطار. كانت تحمل بيدها اليسرى حقيبة تسوّق، وتسير بمشية تعبة تكاد تكون مترنّحة، لا تشبه مشيتها الماضية. غالباً ما كنت حلمت بها في الآونة الأخيرة، من غير أن أدري السبب. كانت تتراءى لي في مرفأ صيد صغير على البحر المتوسّط، جالسة أرضاً، تحيك الصوف بلا انتهاء في نور الشمس، وإلى جانبها طبق صغير يودع فيه المارّة بعض النقود.

عبرَتْ جادّة أوغوست بلانكي وسلكت شارع كورفيزار. تبعت في أثرها الشارع المنحدر نزولاً. دخلَتْ محلّ بقالة. وحين خرجت، أدركت من مشيتها أن حقيبتها كانت أثقل وزناً من قبل.

في الساحة الصغيرة التي تسبق الحديقة، كان هناك

Twitter: @ketab_n

مقهى تعلوه لافتته «لو موسكاديه جونيور». ألقيت نظرة عبر الزجاج. كانت واقفة عند منضدة الشرب، وحقيبة التسوّق موضوعة أرضاً عند قدميها، تسكب لنفسها كوباً من الجعة. لم أشأ تكليمها، ولا مواصلة تعقّبها لمعرفة عنوانها. بعد كلّ تلك السنوات، كنت أخشى ألّا تعود تذكرني.

واليوم، في أوّل يوم أحد من فصل الخريف، ها أنذا في المترو، على الخطّ ذاته. يعبر بي من فوق أشجار جادّة سان جاك. أغصانها تنحني صوب السكّة. فيخيّل لي أنّني معلّق بين السماء والأرض، أتفلّت من حياتي الحاضرة. لم يعد هناك ما يربطني بأيّ شيء. بعد قليل، حين أخرج من محطّة كورفيزار الشبيهة بسقفها الزجاجيّ بمحطّة قطار ريفيّة، سيكون الأمر وكأنّني أنسلّ من شقّ في الزمن، فأتوارى من غير رجعة. سوف أنحدر على الطريق وقد تشاء الصدفة أن ألاقيها. لا بدّ أنّها تسكن في مكان ما من هذا الحيّ.

أذكر أنّني قبل خمس عشرة سنة، كنت في الحالة الذهنيّة نفسها. في عصر أحد أيّام أغسطس، قصدت بلديّة

Twitter: @ketab_n

بولونيه بيانكور لجلب وثيقة ولادة. عدت ماشياً عبر بوّابة أوتوي والجادات المحاذية لميدان سباق الخيل وغابة بولونيا. كنت أقيم مؤقّتاً في غرفة فندق صوب رصيف النهر، بعد حدائق التروكاديرو. لم أكن أعلم بعد إن كنت سأبقى نهائيّاً في باريس، أم أتابع تأليف الكتاب الذي باشرته حول «شعراء المرافئ وروائيّيها»، فأقوم برحلة إلى بوينوس أيرس بحثاً عن الشاعر الأرجنتيني هكتور بيدرو بلومبرغ الذي تركتني بعض أبياته في حيرة:

«قُتل شنايدر هذه الليلة
في مقهى الباراغويّة
كانت عيناه زرقاوين ووجهه شاحباً ضامراً...»

كان أصيلاً مشمساً. قبل قليل من الوصول إلى بوّابة لا مويت، جلستُ على مقعد منتزه صغير. ذلك الحيّ كان يبتعث ذكريات من طفولتي. الباص 63 الذي كنت أستقلّه في سان جرمان ديه بريه كان يتوقّف عند بوّابة لا مويت، وكان ينبغي انتظاره قرابة الساعة السادسة مساءً

Twitter: @ketab_n

بعد قضاء النهار في غابة بولونيا. لكن مهما جهدتُ لجمع ذكريات أخرى من زمن أقرب، فهي كانت تنتمي إلى حياة سابقة لم أكن واثقاً تماماً من أنّني عشتها.

أخرجت من جيبي شهادة ولادتي. ولدت في صيف العام 1945، وفي عصر أحد الأيّام، قرابة الساعة الخامسة، جاء والدي لتوقيع سجلّ البلديّة. بوسعي رؤية توقيعه على النسخة التي سلّموني إيّاها، توقيع غير مقروء. ثمّ عاد إلى البيت مشياً، عبر شوارع ذاك الصيف المقفرة، حيث كانت تُسمع أجراس الدرّاجات الهوائيّة، مطلقة رنينها البلّوريّ وسط الصمت. كان ذلك في الفصل ذاته كما في هذا اليوم، وكاليوم أيضاً كان في نهاية عصرٍ مشمس.

أعدت شهادة ولادتي إلى جيبي. كنتُ في حلم لا بدّ لي أن أستفيق منه في نهاية المطاف. الصِّلات التي تربطني بالحاضر كانت تتلاشى أكثر فأكثر. لكان سيؤسفني فعلاً أن ينتهي بي الأمر على ذلك المقعد، في حالة أشبه بفقدان للذاكرة وانحلال تدريجيّ للهويّة، وألّا يعود بوسعي أن أدلّ المارّة على عنواني... من حسن حظّي أنّني أحمل في جيبي شهادة الولادة تلك، مثل الكلاب التي تضيع في

Twitter: @ketab_n

باريس، غير أنّها تحمل مدوّناً على طوقها عنوان معلّمها ورقم هاتفه... وكنت أحاول جاهداً أن أفهم تلك الحيرة التي كنت أشعر بها. مضت أسابيع ولم أرَ أحداً. أولئك الذين اتّصلت بهم لم يعودوا بعد من عطلتهم. ثمّ أنّني أخطأت باختياري فندقاً بعيداً عن وسط المدينة. في بداية الصيف، لم أكن أنوي المكوث سوى لفترة وجيزة جدّاً، واستئجار شقّة صغيرة أو غرفة. تسلّل الشكّ إلى نفسي: هل كنت أرغب فعلاً في البقاء في باريس؟ طالما أنّ الصيف مستمرّ، سيُخيَّل لي أنّني مجرّد سائح. لكن مع بداية الخريف، سوف تستعيد الشوارع والناس والأشياء لونها اليوميّ، اللّون الرماديّ. وتساءلت إن كنت لا أزال أملك الشجاعة الكافية حتّى أندمج في ذلك اللّون من جديد.

لا بدّ أنّني بلغت نهاية حقبة من حياتي. استمرّت تلك الحقبة خمس عشرة سنة، وها أنّني أمرّ بفترةٍ الزمن فيها معلّق، أخرج منها شخصاً جديداً. كنت أحاول العودة خمسة عشر عاماً في الزمن. في تلك الفترة أيضاً، وصلت حقبة ما إلى نهايتها. كنت أبتعد عن أبوَيّ. كان والدي يحدّد لي مواعيد في القاعات الخلفيّة لحانات، في ردهات

Twitter: @ketab_n

فنادق ومقاهي محطّات قطارات، لكأنّه كان يتقصّد اختيار أماكن عبور حتّى يتخلّص منّي ويهرب حاملاً أسراره. كنّا نبقى صامتَين، جالسين الواحد قبالة الآخر. وبين الحين والآخر، كان يرمقني بنظره مواربة. أمّا والدتي، فكانت تكلّمني رافعة صوتها بشكل متزايد. كنت أحزر ذلك من حركة شفتيها المتقطّعة، إذ كان هناك بيننا زجاج يكتم صوتها.

ثمّ كانت السنوات الخمس عشرة التالية تتحلّل وتتناثر. لا شيء سوى بضعة وجوه مبهمة، بضع ذكريات غامضة، بعض الرماد... لم يكن كلّ ذلك يترك فيّ أيّ حزن، بل على العكس، كنت أشعر بارتياح. سوف أنطلق من الصفر من جديد. ووسطَ ذلك التعاقب الرتيب للأيّام، كانت الأيّام الوحيدة التي لا تزال تبرز من بين سواها هي تلك التي عرفت فيها جاكلين وفان بيفر. لماذا تلك الفترة وليس سواها؟ ربّما لأنّها بقيت عالقة في الزمن.

المقعد الذي كنت جالساً عليه بات من جهة الظلّ. عبرت المساحة الصغيرة المكسوّة بالعشب وجلست في الشمس. كنت أشعر بنفسي خفيفاً. لم أعد مديناً لأحد

Twitter: @ketab_n

بحسابات وتبريرات، ولم أعد ملزَماً بتمتمة اعتذارات وأكاذيب متلعثمة. سوف أصبح شخصاً آخر، وسيكون التحوّل عميقاً بحيث لن يعود بوسع أيّ من الذين التقيت بهم خلال تلك السنوات الخمس عشرة الأخيرة التعرّف عليّ.

كنت أسمع خلفي هدير محرّك. ثمّة من يركن سيّارته عند زاوية المنتزه الصغير والجادّة. ثمّ أُطفئ المحرّك. وتعالت صفقة باب. كانت امرأة تسير بمحاذاة سياج المنتزه. ترتدي فستاناً صيفيّاً أصفر وتضع نظّارتين شمسيّتين. شعرها كستنائيّ. لم أميّز وجهها جيّداً، لكنّني عرفت مشيتها على الفور، مشية متكاسلة. أخذت تتباطأ أكثر فأكثر في مشيتها، وكأنّها حائرة بين عدّة اتّجاهات. ثمّ بدت وكأنّها وجدت طريقها من جديد. كانت تلك جاكلين.

غادرت المنتزه وتبعتها. لم أجرؤ على اللّحاق بها. ربّما لم تعد تذكرني جيّداً. كان شعرها مقصوصاً بأقصر ممّا كان قبل خمسة عشر عاماً، لكنّ تلك المشية لا يمكن أن تكون لسواها.

Twitter: @ketab_n

دخلَتْ أحد المباني. فات الأوان لاعتراضها والتكلّم معها. وفي مطلق الأحوال، ماذا كنت سأقول لها؟ تلك الجادّة بعيدة كلّ البعد عن رصيف لا تورنيل ومقهى دانتي...

عبرْتُ أمام مدخل المبنى وتثبّتُ من الرقم. هل كان هذا منزلها فعلاً؟ أم أنّها كانت تزور أصدقاء؟ أخذت أتساءل في نهاية الأمر إن كان من الممكن معرفة شخصٍ من ظهره، من مشيته. استدرت وعدت في اتّجاه الحديقة. كانت سيّارتها هناك. كدت أترك لها رسالة صغيرة، مع رقم هاتف فندقي.

في المرآب في جادّة نيويورك، كانت السيّارة التي استأجرتها في اليوم السابق في انتظاري. خطرت لي فكرة استئجارها وأنا في غرفة الفندق. بدا لي الحيّ مقفراً، والتنقّل مشياً أو في القطار عبر باريس تلك في شهر أغسطس كان موحشاً إلى حدّ شعرت معه بالعزاء لفكرة أن تكون هناك سيّارة تحت تصرّفي. هكذا سيُخيَّل لي أنّ بوسعي مغادرة باريس في أيّ لحظة إن أنا وددتُ ذلك. شعرت طوال تلك السنوات الخمس عشرة الأخيرة أنّني

Twitter: @ketab_n

أسير الآخرين وأسير نفسي، وكلّ الأحلام التي كانت تراودني كانت متشابهة: أحلام بالهروب، بالرحيل في قطارات كانت تفوتني لسوء الحظّ. لم أكن أصل مرّة إلى المحطّة. كنت أضيع في أروقة المترو، أو أصل إلى رصيف المحطّة من غير أن يأتي القطار. كنت أحلم أيضاً بأنّني، عند الخروج من منزلي، كنت أجلس خلف مقود سيّارة أميركيّة ضخمة تنسلّ على طول الشوارع المقفرة في اتّجاه غابة بولونيا من غير أن أسمع صوت المحرّك، فيغمرني إحساس بالخفّة والهناء.

أعطاني حارس المرآب مفتاح تشغيل السيّارة ورأيت الدهشة على ملامحه حين اندفعت بالسيّارة إلى الخلف وكدت أصطدم بإحدى مضخّات البنزين. كنت أخشى ألّا أتمكّن من التوقّف عند الإشارة الحمراء المقبلة. هذا ما كان يحصل في أحلامي: كانت المكابح تتعطّل، فأعبر بالسيّارة عند جميع الإشارت الحمراء وأسلك الطرقات عكس السير.

نجحت في ركن السيّارة أمام الفندق، وطلبت من موظّف الاستقبال فيه دليلاً للهاتف. لم أجد اسم جاكلين

Twitter: @ketab_n

عند رقم الجادّة. لا بدّ أنّها تزوّجت مع مرور خمسة عشر عاماً. لكن زوجة مَن عساها تكون؟

دولورم (ب.)
دينتيّاك
جونز (أ. سيسيل)
لاكوست (رينيه)
والتر (ج.)
سانشيز سيريس
فيدال

لم يبق لي سوى أن أتّصل بكلّ تلك الأسماء واحداً واحداً.

طلبت الرقم الأوّل من مقصورة الهاتف. استمرّ الرنين طويلاً. ثمّ رفع أحدهم السمّاعة. قال صوت رجل:

- نعم... آلو؟

- أودّ التحدّث إلى جاكلين إن سمحت.

- لا بدّ أنّك أخطأت بالرقم سيّدي.

أقفلت الخطّ. لم يعد لديّ الشجاعة الكافية لطلب

Twitter: @ketab_n

الأرقام الأخرى.

انتظرت هبوط الليل حتّى أخرج من الفندق. جلست خلف مقود السيّارة وانطلقت. أنا الذي كنت أعرف باريس معرفة جيّدة تتيح لي أن أسلك أقصر طريق إلى بوّابة لا مْويت لو كنت أمشي، ألفيتُني أهيم عشوائيّاً في تلك السيّارة. كان مضى وقت طويل من غير أن أقود سيّارة، ولم أكن أعرف أيّ الشوارع هي في اتّجاه واحد. قرّرت المضيّ في خطّ مستقيم أمامي.

قمت بجولة طويلة ملتفّاً عبر رصيف باسي وجادّة فرساي. ثمّ انعطفت في جادّة مورا المقفرة. كان بوسعي تجاوز الإشارات الحمراء، لكنّني كنت أجد متعة في احترامها. كنت أقود ببطء، بوتيرة متنزِّه يسير بخمول في ليلة صيفيّة بمحاذاة كورنيش بحريّ. أضواء السير كانت موجّهة لي وحدي، تخاطبني بإشاراتها الوَدود الغامضة.

توقّفت أمام مدخل المبنى، في الجانب الآخر من الجادّة، تحت أغصان أولى أشجار غابة بولونيا، حيث كانت مصابيح الشارع تترك فسحة من العتمة. كانت

Twitter: @ketab_n

بوّابة المدخل المسقوف مضاءة بمصراعيها المزجّجين وزخارفهما الحديديّة السوداء، وكذلك نوافذ الطابق الأخير. كانت تلك النوافذ مشرعة، ولمحت على إحدى الشرفات خيالات أشخاص. كنت أسمع أنغام موسيقى وهمهمة أحاديث. قدِمت بعض السيّارات وتوقّفت أمام المبنى. كنت واثقاً من أنّ الأشخاص الذين يخرجون منها ويلجون مدخل المبنى كانوا يصعدون جميعهم إلى الطابق الأخير. في لحظة ما، انحنى أحدهم من فوق الشرفة ونادى خيالَين كانا يستعدّان لدخول المبنى. صوت امرأة. كانت تحدّد لهما الطابق. لكنّه لم يكن صوت جاكلين، أو أنّني لم أعرفه ربّما. قرّرت ألّا أبقى هناك مترصّداً، بل أن أصعد. إن كانت جاكلين هي مَن تقيم السهرة، فلم أكن أدري كيف ستتصرّف حين يدخل منزلها بغتةً شخص لم تردها أيّ أخبار عنه منذ خمسة عشر عاماً. لم تدم علاقتنا سوى لفترة وجيزة جدّاً، ثلاثة أشهر أو أربعة. هذا قليل بالمقارنة مع خمسة عشر عاماً. لكنّها بالتأكيد لم تنسَ تلك الفترة... إلّا إذا كانت حياتها الحاضرة محتْها مثل نور كشّاف حادّ يلقي في خبايا الظلمة كلّ ما لا يقع في حقل ضوئه.

Twitter: @ketab_n

انتظرتُ إلى أن وصل مدعوّون آخرون. كانوا هذه المرّة ثلاثة. أشار أحدهم بذراعه في اتّجاه شرفات الطابق الأخير. انضممت إليهم وهم يدخلون المبنى. رجلان وامرأة. ألقيت عليهم التحيّة. لم يكن الأمر يحتمل أيّ شكّ بنظرهم، فأنا أيضاً كنت مدعوّاً إلى هناك.

دخلنا المصعد. كان الرجلان يتكلّمان بلكنة أجنبيّة، لكنّ المرأة فرنسيّة. بدوا لي أكبر سنّاً منّي بقليل.

ابتسمت لهم مرغَماً وقلت للمرأة:

– ستكون سهرة لطيفة جدّاً في الأعلى...

بادلتني الابتسامة.

– هل أنت صديق لداريوس؟ سألتني.

– لا، أنا صديق لجاكلين.

بدا عليها أنّها لم تفهم كلامي.

– لم أرَ جاكلين منذ فترة طويلة، قلت. هل هي بخير؟

قطّبت المرأة.

– لا أعرفها.

ثمّ تبادلت بضع كلمات بالإنكليزيّة مع الرجلين.

Twitter: @ketab_n

وانطلق المصعد.

قرع أحد الرجلين جرس الباب. كانت يداي رطبتين. فُتح الباب وسمِعْتُ جلبة الأحاديث والموسيقى في الداخل. وقف رجل أسمر شعره داكن مسرّح إلى الخلف يبتسم لنا. كان يرتدي بذلة قطنيّة لونها رمليّ.

قبّلته المرأة على خدّيه.

- مرحباً داريوس.

- مرحباً عزيزتي.

كان صوته عريضاً ويتكلّم بلكنة طفيفة. حيّاه الرجلان بدورهما مردّدين «مرحباً داريوس». صافحْتُه من دون التفوّه بكلمة، لكنّه لم يبدُ أنّه فوجئ بحضوري.

تقدّمَنا عبر ردهة المدخل ووصلْنا إلى صالونٍ واجهاته الزجاجيّة مشرّعة. كان المدعوّون واقفين في مجموعات صغيرة. توجّه داريوس والأشخاص الثلاثة الذين صعدت معهم نحو إحدى الشرفات فلحقت بهم. استوقفهم زوجان بلهفة على عتبة الشرفة وبدأ بينهم حديث.

بقيت واقفاً على مسافة. نسُوا وجودي. لجأت إلى أقصى

Twitter: @ketab_n

القاعة وجلست عند طرف كنبة. في الطرف المقابل، كان شابّان جالسين متلاصقين، يتحادثان خافضين صوتيهما. لم يكن أحد يعيرني أيّ اهتمام. رحت أحاول العثور على جاكلين بين كلّ هذا الحشد. حوالى عشرين شخصاً. كنت أراقب داريوس ذاك، هناك على عتبة الشرفة، نحيلاً في بذلته الرمليّة اللّون. قدّرت أن يكون في حوالى الأربعين من العمر. أتراه زوج جاكلين؟ ضوضاء الأحاديث كانت تطغى عليها الموسيقى التي تبدو وكأنّها منبعثة من الشرفات.

مهما حملقت وحدّقت في النساء الواحدة تلو الأخرى، لم أكن أجد أثراً لجاكلين. لا بدّ أنّني أخطأت الطابق. لم أكن واثقاً حتّى من أنّها تقيم في المبنى. كان داريوس واقفاً في منتصف الصالون، على مسافة أمتار قليلة منّي، برفقة امرأة شقراء رشيقة تستمع إليه بكثير من الانتباه. وبين الحين والآخر، تقهقه بالضحك. كنت أنصت لمعرفة اللّغة التي يتكلّم بها، لكنّ الموسيقى كانت تكتم صوته. ماذا لو مشيت نحو ذلك الرجل وسألته أين جاكلين؟ سوف يوضح لي بنبرته الرصينة اللبقة ذلك اللّغز الذي لم

Twitter: @ketab_n

يكن لغزاً حقيقيّاً: إن كان يعرف جاكلين، وإن كانت هي زوجته، أو الطابق الذي كانت تسكن فيه. كان الأمر على ذلك القدر من البساطة. كان يقف ووجهه صوبي. وكان يستمع إلى المرأة الشقراء، ووقعت عيناه عليّ بالصدفة. ظننت في بادئ الأمر أنّه لم يكن يراني، ثمّ وجّه لي إشارة طفيفة وَدوداً بيده. بدا مستغرباً لرؤيتي جالساً وحيداً على تلك الأريكة من غير أن أكلّم أيّاً كان. لكنّ الحقيقة أنّني كنت أكثر ارتياحاً بكثير ممّا كنت عند دخولي إلى الشقّة، وطفت إلى ذهني ذكرى تعود إلى خمسة عشر عاماً. كنّا وصلنا أنا وجاكلين إلى لندن قرابة الساعة الخامسة مساءً عبر محطّة تشارينغ كروس للقطارات. صعدنا في سيّارة أجرة لتقلّنا إلى فندق اخترناه عشوائيّاً في دليل. لم يكن أيّ منّا يعرف لندن. ما إن انعطفت سيّارة الأجرة لسلوك شارع المول ورأيت تلك الجادّة المظلّلة بالأشجار مشرّعة أمامي، حتّى تلاشت السنوات العشرون الأولى من حياتي وذهبت أدراج الرياح، مثل عبء، مثل أغلال أو رباط يلفّني، لم أعتقد أنّه سيكون بوسعي التخلّص منه يوماً. ورغم ذلك، ها هي تلك السنوات تبدّدت من غير أن

Twitter: @ketab_n

يبقى شيء منها كلّها. إن كانت السعادة هي النشوة العابرة التي شعرت بها في ذلك المساء، فأنا كنت عندها لأوّل مرّة في حياتي سعيداً.

فيما بعد، كان الوقت ليلاً وكنّا نتنزّه هائمَين في ناحية إينيسمور غاردنز. كنّا نسير بمحاذاة سياج حديقة مهمَلة. وكانت قهقهات وأنغام موسيقى وجلبة أحاديث تنبعث من الطابق الأخير من أحد المنازل. كانت النوافذ مشرّعة ولاحت في النور مجموعة خيالات. بقينا واقفَين هناك، لصق سياج الحديقة. لاحظَنا أحد المدعوّين، وكان جالساً على حافة الشرفة، فأشار إلينا أن نصعد. في صيف المدن الكبرى، يلتقي ذات مساء، على شرفة، أشخاص غابوا بعضهم عن بعضٍ منذ وقت طويل، أو لا يعرف بعضهم البعض الآخرَ، ثمّ يفقد بعضُهم آثارَ بعضٍ من جديد. ولا شيء له أهميّة حقّاً.

اقترب داريوس:

– هل فقدت أصدقاءك؟ سألني مبتسماً.

مضت لحظات قبل أن أفهم عمّن كان يتكلّم: عن ركّاب المصعد الثلاثة.

Twitter: @ketab_n

- ليسوا أصدقاء لي حقّاً.

لكنّني ندمت على الفور على تلك الكلمات. لم أكن أريده أن يتساءل بشأن وجودي هناك.

- لا أعرفهم منذ وقت طويل، قلت له. وخطر لهم أن يصطحبوني معهم عندك. فكرة جيّدة...

ابتسم من جديد:

- أصدقاء أصدقائي هم أصدقائي.

لكنّني كنت أحيّره لأنّه لم يكن يدري من أنا. حاولت أن أطمئنه، فقلت له متوخّياً التكلّم بأكبر قدر ممكن من الهدوء:

- هل تنظّم الكثير من السهرات الممتعة كهذه؟

- أجل، في شهر أغسطس. ودائماً في غياب زوجتي.

كان معظم الضيوف غادروا الصالون. كيف يمكن أن تتّسع الشرفات لهم جميعاً؟

- أشعر بعزلة شديدة حين لا تكون زوجتي هنا...

بدت كآبة في عينيه. كان لا يزال يبتسم لي. كان الوقت مناسباً لأسأله إن كانت زوجته تدعى جاكلين، لكنّني لم أكن أجرؤ بعد على المجازفة بطرح هذا السؤال.

Twitter: @ketab_n

- وأنت، هل تسكن باريس؟

لا بدّ أنّه طرح هذا السؤال من باب اللياقة، لا غير. فهو في النهاية يستقبلني في منزله ولا يريدني أن أبقى جالساً وحيداً على الأريكة، معزولاً عن الضيوف الآخرين.

- أجل، لكنّني لا أدري إن كنت سأبقى هنا...

تملّكتني فجأةً الرغبة في أن أبوح له بما يخالجني. مضت ثلاثة أشهر تقريباً من غير أن أكلّم أحداً.

- يمكنني أن أزاول مهنتي أينما كان، كلّ ما يلزمني هو قلم وورقة...

- هل أنت كاتب؟

- إن كان يمكن إطلاق صفة الكاتب على ما أفعله...

طلب منّي أن أذكر له عناوين كتبي. ربّما قرأ أحدها.

- لا أعتقد ذلك، قلت له.

- لا شكّ أنّ الكتابة أمر مشوّق، أليس كذلك؟

لا بدّ أنّه لم يكن معتاداً على الأحاديث على انفراد، وحول مواضيع جادّة كهذه.

- لا أريد استبقاءك، قلت له. ويبدو لي أنّني أبعدت ضيوفك.

بالفعل، لم يعد هناك أحد تقريباً في الصالون وعلى

Twitter: @ketab_n

الشرفات.

ضحك بخفّة.

- لا، إطلاقاً... صعدوا إلى السطيحة...

كان هناك بعض الأشخاص لا يزالون في الصالون، جالسين على أريكة في الطرف الآخر من القاعة، أريكة بيضاء شبيهة بتلك التي كنت جالساً عليها إلى جانب داريوس.

- سررت بالتعرّف إليك، قال لي.

ثمّ توجّه إلى الآخرين، وبينهم الشقراء التي كان يكلّمها قبل قليل والرجل ذو السترة «البليزر» الذي كان في المصعد.

- ألا تعتقدون أنّ هذه الجلسة بحاجة إلى موسيقى؟

بادرهم بأعلى صوته، وكأنّ دوره يقتصر على الترفيه. سأضع أسطوانة.

توارى في القاعة المجاورة. وبعد لحظة، ارتفع صوت مغنّية.

جلس مع الآخرين على الأريكة، ناسياً وجودي في لحظة.

كان الوقت حان لي كي أرحل، لكنّه لم يكن يسعني

Twitter: @ketab_n

سوى أن أستمع إلى الجلبة وقهقهات الضحك القادمة من السطيحة، وإلى أصداء صوت داريوس وضيوفه هناك، على الأريكة. لم أكن أميّز جيّداً ما يقولون، واستسلمتُ للأغنية تهدهدني.

رنّ جرس الباب. فنهض داريوس وتوجّه إلى المدخل. وجّه لي ابتسامة لدى عبوره أمامي. واصل الآخرون الحديث فيما بينهم، وفي حميّة النقاش، راح الرجل ذو السترة «البليزر» يلوّح بذراعيه، وكأنّه يريد إقناعهم بأمر ما.

تناهت أصوات من ردهة المدخل وراحت تقترب. كان ذلك صوت داريوس وامرأة تتكلّم بصوت خفيض. التفتُّ. رأيت داريوس برفقة رجل وامرأة، وكان الثلاثة واقفين عند مدخل الصالون. كان الرجل أسمر طويل القامة، يرتدي بذلة رماديّة، ملامح وجهه بارزة وعيناه زرقاوان جاحظتان. المرأة كانت ترتدي فستاناً صيفيّاً أصفر يكشف عن كتفيها العاريتين.

– وصلنا متأخّرين جدّاً، قال الرجل. الجميع رحلوا...

كان يتكلّم بلكنة طفيفة.

Twitter: @ketab_n

- لا أبداً، طمأنه داريوس. إنّهم بانتظارنا فوق.

وأمسك بذراع كلّ منهما.

التفتت المرأة التي كنت أراها من زاوية مواربة، وأحسست بقلبي ينتفض في صدري. عرفتها: تلك كانت جاكلين. كانوا يتقدّمون صوبي. نهضْتُ في حركة آليّة.

قدّمهما داريوس لي:

- جورج وتيريز كايسلي.

حيّيتهما بإشارة من رأسي. نظرت إلى تيريز كايسلي تلك، محدّقاً في عينيها مباشرةً، من غير أن يرفّ لها جفن. لم تعرفني على ما خُيّل لي. بدا داريوس محرجاً لعجزه عن تقديمي باسمي.

- إنّهما جاراي في الطابق السفليّ، قال لي. إنّني سعيد لحضورهما... وفي مطلق الأحوال، ما كانا ليتمكّنا من النوم بسبب الضجيج...

هزّ كايلس كتفيه:

- كيف ننام؟... لا يزال الوقت مبكّراً جدّاً، قال. النهار ما زال في بدايته.

حاولت أن ألاقي عينيها. كانت نظرتها فارغة. لم

Twitter: @ketab_n

تكن تراني، أو أنّها كانت تتعمّد تجاهل وجودي. دفعهما داريوس إلى الطرف الآخر من الصالون، حتّى الأريكة حيث كان الآخرون جالسين. نهض الرجل بسترة «البليزر» ليحيّي تيريز كايسلي. وواصل الجميع الحديث. كان كايسلي يتكلّم بغزارة. بقيَتْ هي واقفة بمعزل بعض الشيء عن الآخرين، وكأنّها حانقة أو ضجرة. وددت لو أقترب منها، آخذها على انفراد وأقول لها بصوت خافت:

- مرحباً جاكلين.

لكنّني بقيت مسمّراً في مكاني، أبحث عن خيط قد يكون لا يزال يربط بين مقهى دانتي أو فندق لا تورنيل قبل خمسة عشر عاماً، وذلك الصالون بواجهاته الزجاجيّة المشرّعة على غابة بولونيا. لم أجد أيّ خيط. كنت ضحيّة سراب. ورغم ذلك، لو فكّرت مليّاً، فإنّ تلك المواقع كانت في المدينة ذاتها، على مسافة قليلة بعضها من البعض الآخر. حاولت جاهداً تصوُّر أقصر طريق ممكن إلى مقهى دانتي: الوصول إلى الضفّة اليسرى عبر الطريق المحيطيّ، ثمّ من بوّابة أورليان، التوجّه مباشرة صوب جادّة سان ميشال... في تلك الساعة من شهر أغسطس، لن يحتاج

Twitter: @ketab_n

الأمر لأكثر من ربع ساعة.

كان الرجل ذو سترة «البليزر» يكلّمها، وكانت تستمع إليه غير مبالية. كانت جالسة على أحد مسندي الأريكة، وقد أشعلت سيجارة. كنت أراها جانبيّاً. ماذا فعلتْ بشعرها؟ قبل خمسة عشر عاماً، كان ينسدل حتّى خصرها، وها هو اليوم أعلى بقليل من تجويف كتفها. وكانت لا تزال تدخّن، غير أنّها لم تعد تسعل.

- هل تصعد معنا؟ سألني داريوس.

ترك الآخرين على الأريكة، وكان برفقة جورج وتيريز كايسلي. تيريز. لماذا بدّلت اسمها؟

سبقوني إلى إحدى الشرفات.

- ما علينا سوى أن نتسلّق السلّم الملاصق للحافّة، قال داريوس.

كان يشير لنا إلى أدراج اسمنتيّة عند طرف الشرفة.

- وإلى أين سوف نبحر أيّها القبطان؟ سأل كايسلي وهو يربّت بحميميّة على كتف داريوس.

كنّا أنا وتيريز كايسلي خلفهما، جنباً إلى جنب. ابتسمت

Twitter: @ketab_n

لي، لكنّها كانت من باب اللياقة، ابتسامة موجّهة إلى شخص مجهول.

- هل سبق أن صعدت إلى الأعلى؟ سألتني.

- لا، أبداً. إنّها المرّة الأولى.

- لا بدّ أنّ المنظر جميل جدّاً من فوق.

لم أعد أدري حتّى إن كان كلامها موجّهاً لي تحديداً، فهي تلفّظت بتلك الجملة بنبرة متجرّدة باردة.

كانت سطيحة فسيحة. كان الضيوف جالسين بمعظمهم على كراسٍ ممدودة بقماش قطنيّ لونه رمليّ.

توقّف داريوس في طريقه أمام إحدى المجموعات. كان أفرادها جالسين في حلقة. كنت أمشي خلف كايسلي وزوجته. بدا الزوجان وكأنّهما نسيا وجودي. التقيا بزوجين آخرين عند طرف السطيحة، وأخذ الأربعة يتحادثون واقفين، وقد اتّكأت هي وكايسلي إلى حافّة السطيحة. كان كايسلي والشخصان الآخران يتكلّمون بالإنكليزيّة. وبين الحين والآخر، تدسّ هي في الحديث جملة صغيرة بالفرنسيّة. اقتربتُ بدوري واتّكأتُ إلى الحافّة. كانت واقفة خلفي مباشرة. والضيوف الثلاثة

Twitter: @ketab_n

الآخرون يواصلون الكلام بالإنكليزيّة. كان صوت المغنّية يطغى على همهمة الأحاديث، وأخذت أصفّر مرافقاً لازمة الأغنية. التفتتْ.

- عذراً، قلت لها.

- أرجوك.

ابتسمت لي، تلك الابتسامة الفارغة ذاتها. وبما أنّها لزمت الصمت، تابعت بنفسي:

- سهرة جميلة...

كان الحديث يزداد حماسة بين كايسلي والضيفين الآخرين. كان صوت كايسلي يخنّ بعض الشيء.

- ألذّ ما هنالك، تابعْتُ، هو الطراوة القادمة من غابة بولونيا...

- أجل.

أخرجَتْ علبة سجائر، تناولتْ منها سيجارة ومدّت لي العلبة:

- شكراً، لا أدخّن.

- أنت على حقّ...

أشعلت سيجارتها بولّاعة.

Twitter: @ketab_n

- حاولت مراراً التوقّف عن التدخين، قالت، لكنّني لا أنجح في ذلك...

- وهذا لا يتسبّب لك بالسعال؟

بدا أنّها فوجئت بسؤالي.

- أنا توقّفت عن التدخين، قلت لها، لأنّه يتسبّب لي بالسعال.

لم يبدر عنها أيّ ردّ فعل. لم يبدُ عليها على الإطلاق أنّها عرفتني.

- من المؤسف أن نسمع ضجيج الطريق المحيطيّ، قلت لها.

- هل تعتقد ذلك؟ أنا لا أسمعه من منزلي... رغم أنّني أسكن في الطابق الثالث.

- للطريق المحيطيّ حسناته أيضاً، قلت لها. لم يستغرق بي الأمر قبل قليل سوى عشر دقائق حتّى أصل إلى هنا من رصيف لا تورنيل.

غير أنّ هذه الكلمات الأخيرة لم تترك فيها أيّ أثر. كانت لا تزال تبتسم لي، ابتسامتها الباردة.

- هل أنت من أصدقاء داريوس؟

Twitter: @ketab_n

كان ذلك السؤال ذاته الذي طرحته عليّ المرأة في المصعد.

- لا، أجبتها. إنّني صديق لإحدى صديقات داريوس... جاكلين...

تفاديت النظر في عينيها. كنت أحدّق بأحد المصابيح في الأسفل، تحت الأشجار.

- لا أعرفها.

- هل ستبقين في باريس خلال الصيف؟ سألتها.

- سوف نذهب أنا وزوجي في الأسبوع المقبل إلى مايوركا.

تذكّرت لقاءنا الأوّل، في ذلك الأصيل الشتائيّ، في ساحة سان ميشال، والرسالة التي كانت تحملها، وقد قرأت على الظرف: مايوركا.

- ألا يكتب زوجك روايات بوليسيّة؟

قهقهت بالضحك. كان الأمر غريباً، فجاكلين لم تضحك يوماً هكذا.

- ولماذا تريده أن يكتب روايات بوليسيّة؟

قبل خمسة عشر عاماً، ذكرتْ لي اسم أميركيّ يكتب

Twitter: @ketab_n

روايات بوليسيّة، يمكن أن يساعدنا على الرحيل إلى مايوركا. كان يدعى ماكغيفرن. عثرت في وقت لاحق على بعض أعماله، وخطر لي حتّى أن أبحث عنه لأسأله إن كان يعرف جاكلين، وإن كان يعلم ماذا حلّ بها. من يدري؟

- ظننته شخصاً آخر يقيم في إسبانيا... وليام ماكغيفرن...

نظرتْ في عينيّ لأوّل مرّة.

- وأنت؟ سألتني. هل تسكن باريس؟

- في الوقت الحاضر. لا أدري إن كنت سأبقى هنا...

كان كايسلي خلفنا يواصل الكلام مخنخناً، واقفاً وسط جمع غفير.

- أقوم بمهنة يمكنني مزاولتها في أيّ مكان، قلت لها. أؤلّف كتباً.

بادرتني من جديد بابتسامة لبقة، وقالت بصوتها اللّامبالي:

- آه حقّاً؟.. إنّها مهنة مثيرة للاهتمام... بودّي قراءة كتبك...

- أخشى أن تبدو لك مضجرة...

Twitter: @ketab_n

– لا، إطلاقاً... لا بدّ لك أن تجلبها لي ذات يوم، حين تعود لزيارة داريوس...

– بكلّ سرور.

كان كايسلي ينظر إليّ. لا بدّ أنّه كان يتساءل من أكون، ولماذا كنت أتكلّم مع زوجته. اقترب منها وأحاط كتفيها بذراعه. كان يحدّق بي من غير أن يحوّل عينيه الزرقاوين الجاحظتين قليلاً.

– السيّد صديق لداريوس، وهو يؤلّف كتباً.

كان يجدر بي أن أعرّف بنفسي، لكنّني لطالما شعرت بالإحراج للإفصاح عن اسمي.

– لم أكن على علم بأنّ لداريوس أصدقاء كتّاباً.

كان يبتسم لي. كان يكبرنا بحوالى عشر سنوات. ترى أين التقت به؟ في لندن ربّما. أجل، لا شكّ أنّها بقيت في لندن بعدما افترقنا.

– كان يظنّ أنّك أنت أيضاً كاتب، قالت له.

ضحك كايسلي ضحكة مدوّية، ثمّ استعاد وقفته، منتصب الصدر، مرفوع الرأس.

– حقّاً؟ هذا ما اعتقدتَ؟ هل تجد أنّ مظهري يوحي

Twitter: @ketab_n

بأنّني كاتب؟

لم أكن طرحت على نفسي هذا السؤال. لم أكن آبهاً للمهنة التي قد يكون كايسلي يزاولها. كنت أردّد لنفسي أنّه زوجها، لكنْ رغم ذلك، لم يكن هناك ما يميّزه عن سائر هؤلاء الأشخاص المجتمعين على تلك السطيحة. كنّا أنا وهي تائهين وسط ممثّلين ثانويّين في موقع تصوير فيلم. كانت تتظاهر بأنّها حفظت دورها، لكنّني أنا لم أكن قادراً حتّى على خداع أحد. سوف يدركون بعد قليل أنّني دخيل. بقيت صامتاً، فيما كايسلي يتفرّس في وجهي. لا بدّ لي من إيجاد جواب:

- خلتك كاتباً أميركيّاً مقيماً في إسبانيا... وليام ماكغيفرن...

ها أنّني كسبت بعض الوقت. لكنّ ذلك لم يكن كافياً. من الضروريّ أن أجد المزيد من الأجوبة، وبسرعة، وأن أتلفّظ بها بنبرة طبيعيّة غير مبالية، حتّى لا ألفت الانتباه. شعرت بالدوار. خفت أن تصيبني وعكة. كنت أعرق. بدا لي الليل خانقاً، أو ربّما كان ذلك بسبب أضواء الكشّافات المسلّطة علينا مباشرةً وجلبة الأحاديث

Twitter: @ketab_n

وقهقات الضحك.

- هل تعرف إسبانيا؟ سألني كايسلي.

أشعلَتْ سيجارة جديدة وهي لا تزال تحدّق بي بنظرتها الباردة.

قلت بمشقّة:

- لا، على الإطلاق.

- لدينا منزل في مايوركا نقضي فيه أكثر من ثلاثة أشهر في السنة.

خُيّل لي أنّ الحديث سيتواصل لساعات على تلك السطيحة. كلمات فارغة، جمل جوفاء، وكأنّنا أنا وهي نجونا وكنّا نواصل حياتنا على أطلال ما كنّا، ولم يعد يسعنا ذكر الماضي ولو تلميحاً. كانت مرتاحة للغاية في ذلك الدور، ولم أكن ناقماً عليها، فأنا أيضاً نسيت تقريباً كلّ ما يتّصل بحياتي، شيئاً فشيئاً. وكلّما كان جزء كامل منها ينهار ويتبدّد، كان يعتريني إحساس طيّب بالخفّة.

- وأيّ فترة من السنة تفضّل في مايوركا؟ سألْت كايسلي.

كنت أشعر بي أفضل حالاً. كان الهواء منعشاً أكثر،

Twitter: @ketab_n

والضيوف حولنا أقلّ صخباً، وصوت المغنيّة رخيماً عذباً.

هزّ كايسلي كتفيه.

- كلّ الفصول لها سحرها في مايوركا.

التفتّ صوبها:

- هل تعتقدين ذلك أنت أيضاً؟

- أنا من رأي زوجي تماماً.

عندها، قلت لها وقد تملّكني إحساس أشبه بالدوار:

- غريب! لم يعد التدخين يسبّب لك السعال.

لم يسمع كايسلي كلامي. كان أحدهم ربّت على ظهره والتفت. قطّبت حاجبيها.

- لم تعودي بحاجة إلى تنشّق الأثير حتّى تتوقّفي عن السعال...

قلت تلك الجملة كأنّني أواصل حديثاً اجتماعيّاً. رمقتني بدهشة. لكنّها لم تفقد برودة أعصابها. أمّا كايسلي، فكان يتحادث مع جاره.

- لم أفهم ما قلته لي...

لم تعد نظرتها تعكس أيّ تعبير، وكانت تتفادى نظرتي. هززت رأسي بحدّة كمَن يستيقظ بغتة.

Twitter: @ketab_n

– عذراً... كنت أفكّر في الكتاب الذي أؤلّفه حاليّاً...

– أهوَ رواية بوليسيّة؟ سألتني بصوت هادئ.

– ليس تماماً.

لم تكن محاولتي مجدية. فبقيت الصفحة ملساء. مياه راقدة. أو بالأحرى طبقة كثيفة من الجليد يتعذّر اختراقها بعد خمسة عشر عاماً.

– هل نعود إلى المنزل؟ سأل كايسلي.

كان يحيط كتفيها بذراعه. كانت قامته جسيمة، وبدت هزيلة بجانبه.

– أنا ايضاً سوف أعود، قلت.

– علينا أن نودّع داريوس.

عبثاً بحثنا عنه بين مجموعات الضيوف على السطيحة. ثمّ نزلنا إلى الصالون. كان أربعة أشخاص جالسين حول طاولة في أقصى القاعة، يلعبون الورق بصمت. وكان داريوس بينهم.

– حقّاً، قال كايسلي، البوكر أقوى من أيّ شيء آخر...

ثمّ صافح داريوس الذي نهض وقبّل يدها هي. صافحْتُ داريوس بدوري.

Twitter: @ketab_n

- عد أنّى شئت، قال لي. ستجد بابي مفتوحاً لك.

حين خرجنا إلى بسطة الدرج، وقفت أنتظر المصعد.

- سوف نفارقك هنا، بادرني كايسلي. نحن نسكن الشقّة في الأسفل مباشرةً.

- نسيت في العصر حقيبتي في السيّارة، قالت له. سوف أعود حالاً.

- حسناً، إلى اللّقاء، قال لي كايسلي موجّهاً لي إشارة خاملة بذراعه. سررت بالتعرّف إليك.

نزل الأدراج. وسمعت صفقة باب يُغلَق. دخلنا المصعد. رفعَتْ وجهها صوبي:

- سيّارتي على مسافة قليلة، قرب الساحة...

- أعرف ذلك، أجبتها.

حملقت فيّ.

- لماذا؟ هل تتلصّص عليّ؟

- رأيتك بالصدفة عصراً، تخرجين من سيّارتك.

توقّف المصعد وانزلق مصراعا الباب منفتحين، لكنّها لم تتحرّك من مكانها. كانت لا تزال تحدّق بي محملقة بعض الشيء.

- لم تتغيّر كثيراً، قالت لي.

Twitter: @ketab_n

انغلق الباب بمصراعيه علينا مجدّداً، محدثاً صوتاً معدنيّاً. خفضت رأسها كأنّما لتحتمي من النور المنسكب من المصباح.

- وأنا، هل تجد أنّني تغيّرت؟

لم يعد صوتها كما قبل لحظة، على السطيحة، بل استعادت ذلك الصوت الأجشّ قليلاً، المبحوح قليلاً، كما في الماضي.

- لا... باستثناء شعركِ واسمك...

كان الصمت يسود الجادّة. كنّا نسمع حفيف الأشجار.

- هل تعرف الحيّ؟ سألتني.

- أجل.

لم أعد واثقاً تماماً من ذلك. كان يُخيّل لي، وهي تمشي بجانبي، أنّني جئت إلى تلك الجادّة لأوّل مرّة. لكنّني لم أكن أحلم. فالسيّارة لا تزال هناك، تحت الأشجار. أشرت إليها بذراعي:

- استأجرت هذه السيّارة... ولا أكاد أحسن القيادة... هذا لا يدهشني...

Twitter: @ketab_n

أمسكت بذراعي. توقّفَت وابتسمت لي:

- حسبَ معرفتي بك، لا بدّ أنّك تخطئ بين دوّاستي الفرامل ومحرّك السرعة...

كنت أشعر أنا أيضاً أنّني أعرفها جيّداً، وإنْ لم ألتقِ بها منذ خمسة عشر عاماً ولم أكن أعرف عن حياتها شيئاً. من بين كلّ مَن صادفتهم على طريقي حتّى ذلك الحين، هي التي بقيت الأكثر حضوراً في ذهني. وإذ كنّا نسير، وهي تلفّ ذراعها حول ذراعي، كانت تتشكّل لديّ قناعة بأنّنا انفصلنا بالأمس فقط.

وصلنا إلى الساحة الصغيرة.

- أعتقد أنّ من الأفضل أن أقود بنفسي وأعيدك إلى منزلك، هذا أكثر أماناً...

- إنّني موافق، لكنّ زوجك سيكون في انتظارك...

ما إن تفوّهت بهذه الجملة حتّى بدت لي فارغة.

- لا... لا بدّ أنّه نائم الآن .

كنّا جالسين جنباً إلى جنب في السيّارة.

- أين تقطن؟

- على مقربة. في فندق، من ناحية رصيف باسّي.

Twitter: @ketab_n

سلكت جادّة سوشيه باتّجاه بوّابة مايّو. لم تكن هذه هي الطريق إطلاقاً.

– إن كنّا نلتقي كلّ خمس عشرة سنة، قالت لي، ففي المرّة المقبلة قد لا تعرفني.

كم سيكون عمرنا عندها؟ خمسين عاماً. بدا لي الأمر غريباً حتّى أنّني لم أتمالك نفسي عن التمتمة: «خمسون...»، محاولاً إيجاد أثر من الواقع في هذا الرقم.

كانت تقود، صدرها متصلّب قليلاً ورأسها مرفوع، وتبطئ عند المفارق. كلّ ما هو حولنا كان صامتاً. باستثناء الأشجار التي كانت تبعث حفيفاً.

وصلنا إلى مدخل غابة بولونيا. أوقفتِ السيّارة تحت الأشجار، قرب شبابيك التذاكر من حيث ينطلق القطار الصغير الذي يقوم بالرحلة بين بوّابة مايّو و«حديقة التأقلم»[1]. كنّا في الظلّ، على حافة الممرّ، والمصابيح أمامنا تلقي نوراً أبيض يضيء تلك المحطّة المتواضعة، والرصيف المقفر، والمقطورات الصغيرة المتوقّفة.

(1) Jardin d'acclimatation حديقة ملاهٍ وتسلية عند مشارف غابة بولونيا.

Twitter: @ketab_n

قرّبت وجهها ولامست خدّي، كأنّما للتثبّت من أنّني حقّاً هناك، على قيد الحياة، بجانبها.

– كان الأمر غريباً قبل قليل، قالت لي، حين دخلتُ ولمحتك في الصالون...

أحسست بشفتيها على عنقي. داعبْتُ شعرها. لم يعد طويلاً كما في الماضي، لكنّ شيئاً لم يتغيّر حقّاً. الزمن توقّف. أو بالأحرى عاد إلى الوقت الذي كانت تشير إليه عقارب الساعة على جدار مقهى دانتي، ليلة التقينا هناك، قبل الإغلاق بقليل.

Twitter: @ketab_n

في عصر اليوم التالي، عدت لآخذ السيّارة التي تركتها أمام مبنى الزوجين كايسلي. فيما كنت أجلس خلف المقود، لمحت داريوس يمشي على رصيف الجادّة، تحت الشمس. كان يرتدي سروالاً قصيراً رمليّ اللّون وقميصاً قطنيّاً أحمر، ويضع نظّارتين سوداوين. لوّحت له بذراعي. لم يبدُ أنّه فوجئ البتّة لرؤيتي هناك.

- كم الطقس حارّ... ألا تودّ الصعود وتناول كأس؟

اعتذرت عن عدم قبول الدعوة، متذرّعاً بموعد.

- الجميع يتخلّى عنّي... كايسلي وزوجته غادرا هذا الصباح إلى مايوركا... هما على حقّ... من الحماقة البقاء في باريس في شهر أغسطس...

قالت لي أمس إنّها لن تغادر قبل الأسبوع التالي. تخلّت

Twitter: @ketab_n

عنّي مرّة جديدة. كنت أتوقّع ذلك.

انحنى نحو الباب:

- لا بدّ لك أن تأتي ذات مساء... نحن بحاجة الى رصّ الصفوف في شهر أغسطس...

بالرغم من ابتسامته، لمست لديه اضطراباً غامضاً. من نبرة صوته.

- سوف آتي، قلت له.

- بالتأكيد؟

- بالتأكيد.

انطلقت بالسيّارة، لكنّني اندفعت بها إلى الخلف بأسرع ممّا ينبغي، فاصطدمت بجذع إحدى أشجار الدلب. بسط داريوس ذراعيه في حركة تعبّر عن أسفه.

اتّجهت نحو بوّابة أوتوي. كنت أنوي العودة إلى الفندق سالكاً أرصفة نهر السين. لا بدّ أنّ هيكل السيّارة في الخلف متضرّر بشدّة، وكانت إحدى العجلات تحفّه حفّاً. كنت أقود ببطء قدر المستطاع.

بدأ يساورني إحساس غريب، ناجم حتماً عن الأرصفة المقفرة، وسديم الحَرّ، والصمت المحيط بي. وكلّما مضيت

Twitter: @ketab_n

منحدراً في جادّة مورا، اتّضح ذلك الإحساس بالضيق. فقد وجدت أخيراً الحيّ الذي غالباً ما كنت أتنزّه فيه في أحلامي برفقة جاكلين. غير أنّنا لم نتمشَّ معاً في تلك الناحية من قبل، أو كان ذلك في حياة أخرى. راح قلبي يخفق بقوّة، مثل رقّاص عند الاقتراب من حقل مغناطيسيّ، قبل أن أصل إلى ساحة بورت دو سان كلو. عرفت النوافير في وسط الساحة. كنت واثقاً من أنّنا كنّا أنا وجاكلين نسلك عادة شارعاً إلى اليمين، خلف الكنيسة، لكنّني لم أجده في ذلك الأصيل.

Twitter: @ketab_n

مضت خمسة عشر عاماً أخرى في ضباب كثيف إلى حدّ أنّها اختلطت بعضها ببعض، ولم تردني أيّ أخبار عن تيريز كايسلي. لم يكن أحد يجيب على رقم الهاتف الذي أعطتني إيّاه، وكأنّ الزوجين كايسلي لم يعودا يوماً من مايوركا.

ربّما توفّيت منذ السنة الماضية. أو قد أعثر عليها في يوم أحد مقبل، صوب شارع كورفيزار.

إنّها الساعة الحادية عشرة مساءً في شهر أغسطس. خفّف القطار من سرعته وهو يعبر أولى محطّات الضواحي. أرصفة مقفرة تحت أضواء النيون البنفسجيّة، أرصفة تسكنها أحلام بالرحيل إلى مايوركا، وبتركيبات رابحة تقوم على رهان الأرقام الخمسة حول الصفر.

برونوا. مونجيرون. أتيس مونس. في هذه الناحية

Twitter: @ketab_n

ولدت جاكلين.

صمَت ضجيج العربات بإيقاعه الرتيب وتوقّف القطار للحظة في محطّة فرز المقطورات. واجهات المباني المحيطة بشارع باريس المحاذي للسكة الحديد مظلمة ومتداعية. في الماضي، كانت تتعاقب على امتداده مقاهٍ ودور سينما ومرائب لا يزال من الممكن تمييز يافطاتها. لا تزال إحداها مضاءة مثل نور ليليّ خفيف، بلا جدوى.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلّف:

ولد باتريك موديانو في بلدة بولوني-بيّانكور قرب باريس في 30 يوليو 1945 لأمّ ممثّلة من أصل فلامنديّ، وأب يهوديّ فرنسيّ من أصل إيطاليّ شكّل غموض سيرته أحد أهمّ عناصر كتابات ابنه ومصادر إلهامه. برع موديانو منذ رواياته الأولى في تصوير الأفق الاجتماعيّ والسياسيّ المأزوم في فرنسا في السنوات التالية للحرب العالمية الثانية، وفي تحويل التجربة التاريخيّة إلى مأساة وجوديّة ضاغطة يعيشها أفراد محرومون من الإرث، ويفتقرون إلى أدنى المرتكزات، يحدوهم أملٌ جارفٌ في تأسيس الذّات وتحقيق ما يكفي من الوضوح لإعادة ابتكار الحياة. تُوّج عمله بجوائز عديدة منها جائزة غونكور للرواية في 1978، وجائزة نوبل للآداب في 2014. له أكثر من ثلاثين رواية ومجموعة قصصيّة، وتصدر عن مشروع «كلمة» في أبو ظبي ترجمة ستّ من رواياته إلى العربيّة.

Twitter: @ketab_u

نبذة عن المترجمة :

دانيال صالح شاعرة لبنانية، لها باللغة الفرنسية مجموعتان شعريّتان بعنوان «حجارة الليل».- باريس 1984، و«الخطوات النائمة».- بيروت 1985. ترجمت في الصحف والدوريّات اللبنانيّة والعربيّة عشرات القصص القصيرة والقصائد لجاك بريفير وبول إلوار وجورج شحادة وتشيزاري بافيزي وهنري ميشو ولو كليزيو وغيرهم، وساهمت في ترجمة أشعار لأنسي الحاج إلى الفرنسيّة، وأعدّت وترجمت بالاشتراك مع شارل شهوان أنطولوجيا للقصّة القصيرة بعنوان «ثلاثون قصّة من الكوكب». من ترجماتها إلى العربيّة «منصب شاغر» للبريطانية ج. ك. رولينغ، و«بوتشان» لليباني ناتسومي سوسيكي، و«فيضان ونصوص أخرى» لإميل زولا، والكتابان الأخيران صدرا عن مشروع «كلمة» للترجمة.

Twitter: @ketab_n

من أقاصي النّسيان

كنت سأخلط القصاصات مثل لعبة ورق وأنثرها على الطاولة. أهذه هي إذَن حياتي الحاليّة؟ هل أنّ الحياة برمّتها تقتصر بالنسبة لي في الوقت الحاضر على حوالى عشرين اسماً مختلفاً وعنواناً متفرّقاً لم أكن أنا سوى الرابط الوحيد بينها؟ ولماذا هذه الأسماء والعناوين وليس سواها؟ ما كان القاسم المشترك بيني وبين هذه الأسماء والأماكن؟ كنت في حلم فيه ندرك أنّه يمكننا أن نستيقظ في أيّ لحظة، حين تهدّدنا أخطار. بوسعي، إن قرّرت، أن أنهض عن هذه الطاولة، وسوف ينحلّ كلّ شيء ويتبدّد في العدم. ولن يبقى سوى حقيبة من الصفيح وبضع قصاصات من الورق خربشَتْ يدٌ عليها أسماء أشخاص وأماكن لن يعود لها أيّ معنى بنظر أيٍّ كان.

السعر 40 درهماً

9 789948 136606

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
TOURISM & CULTURE AUTHORITY

كلمة
KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة